نظرية تطور الجنس البشرى عند لوكريتيوس ونقض الفكر الأسطوري

د/ على عبد التواب على
كلية الآداب – جامعة القاهرة
قسم الدراسات اليونانية واللاتينية

تناول لوكريتيوس في النصف الثانى من الكتاب الخامس (Lucr. DRN 5.925-1457) نشأة الحياة البشرية على الأرض وتاريخ تطور الحضارة ، حيث يرى تدرج الإنسان في التطور من حالة البدائية الوحشية إلى بلوغ أوج الحضارة في عصره ، وأن الحاجة قادته إلى الإبتكار كما أن الصدفة لعبت دوراً أيضاً في تطوره . تحدث لوكريتيوس عن تكوين الذرات للأرض التي أخرجت من رحمها في البداية النباتات ثم الطيور فالحيوانات والإنسان . ومن هنا تبدأ رحلة التطور من الحياة القاسية ، نظراً لجهل الإنسان بالزراعة وعدم معرفته للنار أو الملبس ولا توجد مجتمعات أو قوانين أو حتى عرف ينظم العلاقة بين البشر ، ومن هذه الحياة البدائية تبدأ مراحل التطور باكتشاف النار ثم معرفة اللغة وبداية الحياة الاجتماعية الأسرية واتحاد الجيران لاحتياجهم للحماية المشتركة وسن القوانين التي تكفل العدالة بين الجميع. ثم يتحدث عن نشأة الفكر الدينى والإيمان بالآلهة التي كانت تداعب خيالهم في الأحلام وخشيتهم منها بسبب رؤيتهم للظواهر الطبيعية كالرعد والزلازل . ثم تأتى مرحلة اكتشاف البشر للمعادن واستخدامها في صناعة أدواتهم وخاصة الأدوات الزراعية والسلاح . ثم ترويض الحيوانات كالجواد والثور والفيل والخنزير . ثم معرفة الإنسان للنسيج وصناعة الملابس ، وكذلك معرفته لفن فلاحة الأرض ، وتعلمه الغناء من تغريد الطيور ، ثم معرفته للأدوات الموسيقية والرقص . ومن ثم دخل الإنسان في مراحل

الرفاهية في المأكل والملبس ، ثم حسابه للزمن . وأخيراً معرفته لتحصين المدن وفن الملاحة وإبرام المعاهدات بين الأمم وقرض الشعر .

وهكذا دارت عجلة التطور من مرحلة لأخرى ، وقد لخص لوكريتيوس قصة هذا التطور في الأبيات الختامية للكتاب الخامس :

" السفن وزراعة الحقول وحصون المدن والقوانين
والأسلحة والطرق والملابس والأشياء الأخرى من هذا القبيل ،
(كل) الهبات ، وكل المتع بكل ما تعنى الكلمة ،
قصائد الشعر والصور ، ونحت التماثيل الرائعة ،
(كل تلك الأشياء) علمتها الممارسة وخبرة العقل النشط
للإنسان الراغب في التطور تدريجياً خطوة بخطوة.
وهكذا فإن الزمن يكشف كل شئ تدريجياً لنا ،
ويرفعه الفكر إلى تخوم الضوء .
لأنهم كانوا يرون أن كل (فن) من الفنون
يخرج (من رحم) فن آخر بفضل العقل ، إلى أن بلغوا أقصى ذروة ".

Navigia atque agri culturas moenia leges
arma vias vestes et cetera de genere horum ,
praemia , delicias quoque vitae funditus omnis ,
carmina picturas , et daedala signa polire ,
usus et impigrae simul experientia mentis
paulatim docuit pedetemtim progredientis .
sic unumquicquid paulatim protrahit aetas
in medium ratioque in luminis erigit oras .
namque alid ex alio clarescere corde videbant
artibus , ad summum donec venere cacumen .
(Lucr. DRN 5. 1448-57)

تقول M. Taylor إن مفهوم كلمة " تطور " عند لوكريتيوس له دلالات عديدة ، فهو يعنى تطور الإنسان في المعرفة والتغلب على الطبيعة . لقد أعاد لوكريتيوس إلى أذهاننا أسطورتى " فايتون " (Phaethon) و " ديوكاليون " (Deucalion) ، وهما يرمزان إلى الكوارث التي تسببت فيها النار والفيضان في الماضى ، وبهذا يتنبأ بأن

انتصار أحد هذه العناصر قد يتسبب في الدمار الشامل للكون [١] . يبدو البعد المجازى للأسطورة واضحاً في هذه القصة ، وعلى هذا النحو فإنه يمكن القول أن الحاجة التي دفعت الإنسان إلى الإبتكار في الماضى فإنها ستدفعه في المستقبل إلى إيجاد تقنيات حديثة . فالتطور والتقدم في المعرفة والرغبة في الهيمنة على الطبيعة في الماضى سيستمرون طالما كان الإنسان على وجه الأرض [٢] .

قدم الإغريق ثلاث رؤى بشأن تاريخ الحضارة وتطور الجنس البشرى :

أولاً : أسطورة "العصر الذهبى " ، وهو عصر الراحة والبراءة حيث كان الإنسان نقياً فهو يعيش في جوار الآلهة ، لا يكدح ولا ينصب فالأرض تمده بالطعام بسخاء ولا يوجد نزاع أو شرور ، وهى رؤية إغريقية لجنة عدن في قصص العهد القديم . وهذا العصر يتبعه إنحدار متواصل في الأخلاق ، ويعد هيسيودوس هو أول من تبنى هذا الإتجاه في الأدب الإغريقى [٣] .

ثانياً : موروث " المبدعين الأوائل " πρωτοι ευρεται ، فقد بدأ الإغريق في القرن الخامس ق.م . في الحديث عن فضل " المبدعين الأوائل " سواء من البشر أو من الآلهة ، مثل فضل بروميثيوس على البشرية [٤] ، وقد لاقت هذه الأحاديث رواجاً كبيراً في العصور اللاحقة [٥] . ويسير على غرار هذا الموروث المؤلفات اليوهومرية مثل تقرير ديودوروس الصقلى (Diodorus Siculus) عن فترة ما قبل التاريخ عند المصريين [٦]، فطبقاً له فإن الآلهة التي تسكن الأرض كانت في الأصل من البشر ثم قام البشر بتأليههم نظراً لابتكاراتهم وخدماتهم [٧] .

ثالثاً : نظرية التطور الحضارى ، وهى رؤية تاريخية تأثر بها علماء الأنثروبولوجيا . ويعتقد أصحابها ، مثل أصحاب موروث " المبدعين الأوائل " ، أن تاريخ الجنس البشرى كان يتطور من الحالة البهيمية القاسية إلى التحضر والتقدم ، إلا أنهم يرون أن اكتشاف الفنون جاء كتطور تدريجى ولم يكن كشفاً إلهياً ، وبذلك يختلفون عن أصحاب الاتجاه الثانى . وهذا الاكتشاف للفنون قد نتج لعدة عوامل مثل الصدفة وسعى البشر وراء التطور [٨] بالإضافة إلى الحاجة ، فالحاجة أم الإختراع [٩] . يعد ديموقريطوس هو أول من قدم تقريراً مفصلاً لنظرية التطور الحضارى للإنسان ، وهو

القائل باستحالة حدوث العصر الذهبى أى الفردوس المفقود ، وقد أشاد بهذه النظرية وقام بتطويرها من بعده كل من إبيقوروس ولوكريتيوس .

على أية حال فإنه لم يصلنا من إبيقوروس عن هذه النظرية سوى بعض التعليقات الموجزة وتقريره عن أصل اللغة الذي يؤكد فيه على دور الغريزة في عملية التطور والطبيعة المتدرجة له (١٠) . وعلى ذلك فإننا نتوقع أن يسير تقرير لوكريتيوس ، الذي كان يقتفى أثر معلمه بخطى ثابتة في هذا السياق العقلانى ، ولعل قراءة واحدة للنص تكفى للكشف عن العديد من الإشارات للطبيعة القاسية والوحشية لحياة الإنسان الأول ، ودور الصدفة والحاجة في مراحل تطوره ، والطبيعة المتدرجة لعملية التطور (١١).

يرى C.R.Beye أن لوكريتيوس قد تبنى نهجاً أقرب ما يكون إلى منهج العلماء الأنثروبولوجيين في العصر الحديث ، وأنه قد حرر نفسه من سمات الموروث الأسطورى للعصر الذهبى ، فتصوير العقبات التي واجهت الإنسان البدائى ومراحل تطوره لم يكن وصفاً عشوائياً ، بل كان لوكريتيوس واعياً تماماً لموروث العصر الذهبى وما به من تدهور أخلاقى مستمر ، ولهذا فإن تقريره عن " تاريخ الحضارة" كان مشبعاً بإشارات خفية للروايات الأسطورية التي تتعلق بالحياة الأولى للجنس البشرى وتطور الحضارة (١٢) .

وتهدف هذه الدراسة إلى توضيح الإشارات المستترة إلى كل من نظرية العصر الذهبى وموروث " المبدعين الأوائل " ، هذا علاوة على توضيح نظرية التطور الحضارى للإنسان التي يتبناها لوكريتيوس.

تركز أسطورة العصر الذهبى على إثنى عشر عنصر وهى كالأتى :

١-خلق الآلهة للبشر .

٢-الإرتباط الوثيق بالآلهة .

٣-غياب الزراعة ، وعدم الحاجة للعمل .

٤-إنبات الأرض للمحاصيل من تلقاء نفسها .

٥- الحياة النباتية .

٦-غياب العنف والحرب .

٧-غياب الإبحار والتجارة .
٨-عدم معرفة المعادن .
٩-غياب نظم الحكم والقوانين .
١٠-لا وجود للحياة الأسرية .
١١-الملكية المشتركة للمتاع والممتلكات .
١٢-المشاعر الطيبة بين الإنسان والحيوان [١٣] .

لقد كان موقف لوكريتيوس واضحاً تجاه هذا الموروث وهو الرفض . قدم هيسيودوس في عمله " الأعمال والأيام" صورة لتطور الجنس البشرى في خمسة عصور [١٤] ، ويعد أقدمها " الجنس الذهبى " وسوف نناقش أصداء سمات هذا الجنس الذهبى عند لوكريتيوس.

يقول هيسيودوس إن الآلهة قد خلقت البشر في عصر كرونوس :

" في البداية خلقت الآلهة الخالدة ، التي تقطن فوق جبل
الأوليمبوس ، الجيل الذهبى من البشر الفانى ،
هم الذين عاشوا في عهد كرونوس عندما كان يحكم السماء [١٥] . "

Χρυσεον μεν πρωτιστα γενος μεροπων ανθρωπων
αθανατοι ποιησαν Ολυμπια δωματ᾽ εχοντες. οι μεν επι Κ
ρονου ησαν, οτ᾽ ουρανῳ εμβασιλευεν·
(Hes. Op. 109-111)

لا ريب أن أسطورة الجنس الذهبى كانت في ذهن لوكريتيوس ، وهو ما يتضح من إشارته التالية في الكتاب الثانى [١٦] :

"إننى لا أعتقد أن أجيال من البشر قد نزلت
من علٍ من السماء إلى الأرض بحبل من ذهب ."

Haud , ut opinor , enim mortalia saecla superne
aurea de caelo demisit funis in arva , (Lucr. DRN 2. 1153-4)

وبعد أن رفض لوكريتيوس الإيمان بفكرة "الحبل الذهبى " أى " العصر الذهبى " ، فإننا نراه في نهاية الكتاب الثانى يعرض لنا شكوى الفلاح العجوز الذي يؤمن بأن فساد التربة يساوى زوال التقوى وانهيار الأخلاق (2.1163-72) ، وفى حين أنه في

الكتاب الثانى يهاجم الفكرة الرواقية عن خلود العالم فإنه في الكتاب الخامس يهاجم فكرة العناية الإلهية عند الرواقيين (١٧) .

فند لوكريتيوس في فقرة طويلة في بداية الكتاب الخامس خلق الآلهة سواء للكون أو البشر (5.165-94) ، وبالقرب من بداية تقريره نرى نموذجاً واضحاً للرفض التام لدور الآلهة في الخلق حيث يذكر الشاعر أن كل المخلوقات قد خرجت من رحم الأرض (١٨) :

" وعلى ذلك فإن الأرض مراراً وتكراراً تمتلك عن استحقاق اسم
الأم الذي نالته ، حيث أنها هى نفسها قد خلقت الجنس
البشرى وأخرجت في وقت محدد كل أنواع الحيوانات
تقريباً التي تتجول هنا وهناك فوق الجبال الهائلة ،
وأخرجت في الوقت ذاته طيور الهواء بأشكالها المتنوعة .
لكن لأنه ينبغى (على الأرض) أن تتوقف عن إنجاب المخلوقات ،
فقد توقفت ، مثل المرأة التي أنُهكت من كبر السن ."

Quare etiam atque etiam maternum nomem adepta
terra tenet merito, quoniam genus ipsa creavit
humanum atque animal prope certo tempore fudit
omne quod in magnis bacchatur montibu ' passim ,
aeriasque simul volucres variantibu' formis.
sed quia finem aliquam pariendi debet habere ,
destitit , ut mulier spatio defessa vetusto . (Lucr. DRN 5.821-7)

قدمت الأساطير الإغريقية نماذج عديدة لمولد رجال من الأرض ، ومن بينها قصة إعادة النسل للعالم بواسطة ديوكاليون وبيرها ، وأسطورة خلق الجنس البشرى الأول من طين على يد بروميثيوس (١٩) . هذا كما أن الأرض طبقاً لرواية هيسيودوس هى أم التياتن والكيكلوبس والمردة والإيرينيات (٢٠) . فأمومة الأرض للخلق ، التي وردت عند لوكريتيوس ، هى فكرة ذات بعد أسطورى فطبقاً لهيسيودوس فإنه قد حدث تزاوج مقدس بين الأرض والسماء ، فقد حملت جايا (Gaia) أورانوس (Uranus) فغشاها من كل جانب فرقدت معه (٢١) .

والحق أن لوكريتيوس كان يرى أن الأساطير تحتوى إلى حد كبير على بذور الحقيقة ، ولذلك فهولا يمانع من استغلالها في بداية تقريره بالحديث عن أمومة الأرض للمخلوقات ، ولكنه ينكر تماماً جنوح الأساطير إلى الخرافات غير العقلانية مثل إنجاب الأرض للوحوش مثل الكنتاروس :

" لكن لم يوجد قط جنس الكنتاوروس ، ولم يكن بالإستطاعة في أى حقبة
زمنية أن توجد مخلوقات ذات طبيعة مزدوجة أو ذات
جسد ثنائى مركب من عضوين متنافرين ،....."

Sed neque Centauri fuerunt , nec tempore in ullo
esse queunt duplici natura et corpore bino
ex alienigenis membris compacta , …..(Lucr. DRN 5.878-81)

ولكن لوكريتيوس لم ينكر أن الأرض قد أنجبت الكثير من المسوخ المشوهة كالخنثى والبكماء والعمياء وأخرى بلا أطراف ، وهى مخلوقات قد اندثرت على الفور لأنها لم تمتلك مقومات القدرة على البقاء فهى لا تتمكن من تناول الطعام ولا تتناسل :

" وفى ذلك الوقت كان من المحتم أن تفنى سلالات كثيرة من الكائنات الحية
وذلك لعدم قدرتها على إنجاب ذرية بطريق التكاثر ."

Multaque tum interiisse animantum saecla necessest
nec potuisse propagando procudere prolem .(Lucr . DRN 5.855f.)

ويعتقد A.Schiesaro أن حديث لوكريتيوس عن المخلوقات ناقصة النمو يهدف إلى تحقيق غرضين الأول هو إظهار أن خلق الكائنات القادرة على البقاء في الحياة قد جاء على نحو تدريجى ، والثانى هو توضيح أن قوانين الطبيعة ثابتة ولا تتغير منذ البداية ، وبذلك فإن ظهور وحوش مثل الكنتاوروس والكيمايرا ذات الرؤوس الثلاثة هو أمر لا يقبله العقل ومرفوض بالكلية (٢٢) .

لم يقتصر رفض لوكريتيوس لهذه المخلوقات الأسطورية فحسب ، بل إنه رفض كل السمات الخارقة بالكون التي ذكرتها الأساطير والتى لا يقبلها العقل :

" وعلى ذلك فإن من يعتقد أن مثل هذه الحيوانات من الممكن أن
تولد ، حتى عندما كانت الأرض جديدة والسماء حديثة العهد ،
معتمداً في ذلك على هذه الحجة الواهية وهى الإبداع ،

فإنه قد يثرثر بالكثير من الهراء بمنطق مشابه ،
وعندئذ سيقول إن أنهار من الذهب كانت تفيض فوق الأرض
في كل مكان ، وأن الأشجار اعتادت أن تزهر بالجواهر ،
أو أن الإنسان قد وُلد ولديه قوة هائلة لأعضائه
لدرجة أن يكون بإمكانه أن يعبر البحر معتمداً على قدميه ،
وأنه يستطيع أن يدير السماء كلها التي حوله بيديه .

quare etiam tellure nova caeloque recenti
talia qui fingit potuisse animalia gigni,
nixus in hoc uno novitatis nomine inani,
multa licet simili ratione effutiat ore,
aurea tum dicat per terras flumina vulgo
fluxisse et gemmis florere arbusta suesse
aut hominem tanto membrorum esse impete natum ,
trans maria alta pedum nisus ut ponere posset
et manibus totum circum se vertere caelum.

(Lucr . DRN 5.907-15)

تقول M.Gale إن لوكريتيوس قد خصص فقرات مطولة لتفنيد وجود المخلوقات المركبة كالكنتاوروس والكيمايرا ، أما الأساطير التي تتناول أنهار الذهب والأشجار التي تنبت بالجواهر والمخلوقات العملاقة التي يمكنها أن تعبر البحر بأقدامها أو تحرك قبة السماء بأيديها ، فإنها من السخافة بحيث لا تستحق نظرة ثانية من التأمل. على أية حال فإن هذه الفقرة تحتوى على رفض إضافى للسمات التي تتصف بالمبالغة في الأساطير الإغريقية[٢٣] :

" وكان أطلس يحمل السماء الفسيحة مجبراً
برأس وسواعد لا تعرف الكلل ، وهو واقف على تخوم الأرض
أمام الهسبيريات عذبة الصوت ."

Ατλας δ' ουρανον ευρυν εχει κρατερης υπ' αναγκης
πειρασιν εν γαιης, προπαρ Εσπεριδων λιγυφωνων,
εστηως κεφαλῃ τε και ακαματῃσι χερεσσιν·

(Hes. Th . 517-9)

أما الأشجار التي تنبت جواهر فهى إشارة إلى حدائق الهسبيريات (Hesperides) التي تثمر أشجارها تفاح من الذهب [٢٤] :

" والهسبيريات اللائى يحرسن التفاح الذهبى الجميل

والأشجار التي تحمل ثمار الفاكهة على الجانب الآخر من المحيط المشهور . "

Εσπεριδας θ' , ῃς μηλα περην κλυτου Ωκεανοιο
χρυσεα καλα μελουσι φεροντα τε δενδρεα καρπον.
(Hes. Th. 215f.)

وهكذا فإن أبيات لوكريتيوس تحتوى على تهكم ساخر عالى النبرة من هذا الموروث الأسطورى ، وقد اختار موضع هذه الأبيات بحصافة واضحة إذ إنها تسبق مباشرة تقريره عن حياة الإنسان الأول ، فهى تمهد للجزء التالى الثرى بالتلميحات الخفية لأسطورة العصر الذهبى ، وتعود بنا إلى الصور التي رسمها هيسيودوس التي تحدد الخطوط العريضة لتقرير لوكريتيوس عن نشأة الإنسان وتطوره .وجدير بالذكر أن لوكريتيوس في هذا الجزء قام بمحاولة مدروسة لرفض السمات غير المقبولة بالموروث الأسطورى من دون رفضها كلية ، بمعنى أنه كان يتفق أحياناً مع الموروث الأسطورى في بعض الآراء ولكنه قام بصبغه بصبغة عقلانية [٢٥] .

وصف هيسيودوس حياة الجنس الذهبى للبشر على نحو مثالى بالسمات التالية :

" وكانوا يحيون مثل الآلهة ، بعيداً عن هموم الحياة
وأحزانها ، دون القيام بأى عمل شاق ،
ولا تحل عليهم الشيخوخة البائسة ، وكانت أقدامهم
وسواعدهم لا تعرف الكلل ، وكانوا يستمتعون بالولائم ،
وكانوا يعيشون في راحة من جميع المكاره . "[٢٦]

ωστε θεοι δ' εζωον ακηδεα θυμον εχοντες
νοσφιν ατερ τε πονων και οιζυος· ουδε τι δειλον γηρας επην,
αιει δε ποδας και χειρας ομοιοι
τερποντ' εν θαλιῃσι κακων εκτοσθεν απαντων·
(Hes. Op. 112-5)

ولعل وصف لوكريتيوس لحالة السعادة التي تعيشها الآلهة في الكتاب الأول يظهر تأثراً واضحاً بوصف هيسيودوس بحياة البشر من أبناء الجنس الذهبى [٢٧] :

" لأن كل طبيعة الآلهة ثابتة فيما بينهم ،
فهى تتمتع بحياة خالدة في سلام تام ،
فهى في عزلة وبعيدة كل البعد عن شئوننا ،
لأنها بعيدة عن أى ألم ، وبعيدة عن الأخطار ،
فهى ذاتها قوية بقواها الذاتية ، ولا تحتاج إلينا على الإطلاق ،
وهى لا تُسترضى بفضائلنا ، ولا يعتريها الغضب ."

omnis enim per se divom natura necessest
inmortali aevo summa eum pace fruatur
semota ab nostris rebus seiunctaque longe ;
nam privata dolore omni, privata periclis,
ipsa suis pollens opibus , nil indiga nostri,
nec bene promeritis capitur neque tangitur ira .
(Lucr . DRN. 1.44-9)

يرفض لوكريتيوس هذه الصورة المثالية للحياة الأولى للبشر ويقدم على النقيض تماماً الصعاب التي كانت تواجههم ، فقد كانوا يعيشون على غرار الوحوش more ferarum(5.932) ، ويشربون من المجارى المائية كالبهائم (5.947) ، وكانوا يجهلون قوانين الطبيعة ويملأهم الرعب منها :

" وبحلول وقت المساء فإنهم كانوا يلقون بأجسادهم البرية
العارية على الأرض مثل الخنازير خشنة الشعر ،
وكانوا يغطون أجسادهم بأوراق الأشجار وأفنانها ."

saetigerisque pares subu ' sic silvestria membra
nuda dabant terrae nocturno tempore capti ,
circum se foliis ac frondibus involventes . (Lucr. DRN 5.970-2)

إلا أنه يذكر أيضاً أن البنيان القوى للإنسان الأول قد ساعده على البقاء [٢٨] :

" لكن ذلك الجنس البشرى على الأرض كان حينها أكثر صلابة
بكثير ، كما كان من المناسب ، نظراً لأن الأرض الصلبة قد أنجبته ،

وكان بنيانه من الداخل من عظام أكثر ضخامة وأكثر صلابة ،
وتناسبه أوتار متينة في كل مكان من لحمه ،
ولذلك لم يكن من السهل أن يُقهر بالحرارة أو بالبرودة ،
أو بأى طعام غريب أو بسقم الجسد . "

At genus humanum multo fuit illud in arvis
durius , ut decuit , tellus quod dura creasset ,
et maioribus et solidis magis ossibus intus
fundatum , validis aptum per viscera nervis ,
nec facile ex aestu nec frigore quod caperetur
nec novitate cibi nec labi corporis ulla . (Lucr . DRN 5. 925-30)

فحياة الإنسان الأول لم تكن خالية من الصعاب لكن بيئته كانت رحيمة به فالمناخ كان أكثر لطفاً مما عليه في عصر لوكريتيوس وذلك لأن العالم كان حديث العهد[٢٩]:

" فالأرض تقدم لأبناءها الصغار الطعام ، والحرارة بمثابة الثياب ،
والعشب بمثابة الفراش الغنى بالكثير من الحشائش الناعمة .
لكن حداثة الكون لم تقدم البرد القارص ،
ولا الحر المبالغ فيه ، ولا العواصف ذات القوة العاتية . "

terra cibum pueris , vestem vapor, herba cubile
praebebat multa et molli lanugine abundas.
at novitas mundi nec frigora dura ciebat
nec nimios aestus nec magnis viribus auras.
(Lucr. DRN 5.816-9)

ويبدو أن لوكريتيوس في هذه الفقرة كان في ذهنه وصف أفلاطون لحياة البشر في عهد كرونوس أى العصر الذهبى :

" وعاشوا في الغالب في الهواء الطلق ، بلا ملبس أو فراش ،
إذ أن المناخ كان معتدلاً ، والحشائش الكثيرة التي تنبت من
الأرض قدمت لهم الفراش الوثير . هذه ياسقراط ،
كانت حياة البشر في عهد كرونوس ."

γυμνοι δε και αστρωτοι θυραυλουντες τα πολλα
ενεμοντο· το γαρ των ωρων αυτοις αλυπον εκεκρα- το, μαλακα
ς δε ευνας ειχον αναφυομενης εκ γης ποας αφθονου. τον δη βιο

ν, ω Σωκρατες, ακουεις μεν τον των επι Κρονου· (Plato Pol. 272 a-b)

تعد عدم فلاحة الإنسان للأرض هى السمة الأكثر شيوعاً في كل التقارير التي تناولت العصر الذهبى ، إذ أن الأرض كانت تنتج ثمارها من تلقاء نفسها [٣٠] :

" وكان لديهم كل الطيبات من الرزق ، فالأرض المثمرة [٣١] .

تخرج لهم من تلقاء نفسها الثمار بوفرة وبلا عناء منهم . "

.....εσθλα δε παντα

τοισιν εην· καρπον δ' εφερε ζειδωρος αρουρα αυτοματη πο

λλον τε και αφθονον· (Hes. Op. 116-8)

لقد كان هيسيودوس الشاعر المزارع يتبع الموروث الريفى الإغريقى الذي يحتوى على صورة " الأيام القديمة الطيبة " ، وهو أيضاً مفكر استطاع أن يعبر عن أفكاره على هيئة رواية ، فهو صانع للأساطير . ولقد كان غرضه هو تفسير الوضع الراهن للإنسان في عصره ، وخاصة حاجته للعمل . فلماذا عليه أن يعمل مادام ، كما يُقال ، كان يعيش ذات مرة على سخاء الطبيعة بلا نصب ؟ وكانت إجابة هيسيودوس هى كتابة قصة يظهر فيها أن نعيم الماضى وراحته التي يتناولها الموروث قد تحول إلى حاضر قاسى . وخلاصة القول أن الإغريق قد حافظوا على الصورة الموروثة لعصر السعادة الخالى من الصعاب التي يعاصرونها ، وهى الصورة التي نسبوها إلى الماضى السحيق [٣٢] .

بدأ أراتوس روايته عن العصر الذهبى بتصوير ربة العدالة ممسكة في يدها سنبلة قمح ، ويؤكد أن الرجال لم يعرفوا حينها النزاع والعراك لأنهم عاشوا حياة بسيطة بعيداً عن البحار ، فقد كانت ربة العدالة بمساعدة الثور والمحراث تهئ الأرض لإنتاج المحاصيل لهم :

" ولكن ربة العدالة نفسها ، سيدة الرجال ، أمدتهم هى والثور

والمحراث بكل الخيرات ، كعطايا للأبرار ."

αλλα βοες και αροτρα και αυτη, ποτνια λαων,

μυρια παντα παρειχε Δικη, δωτειρα δικαιων.

(Aart. Phaen. 112f)

عند لوكريتيوس أيضاً لا توجد زراعة ، ليس لأنها غير ضرورية ، بل لأن فن الزراعة لم يكن قد عرفه الإنسان بعد :

"كان (البشر) يعيشون حياتهم بأسلوب التجوال على غرار الوحوش .
فلم يكن موجوداً حينها قائد قوى للمحراث المنحنى ،
ولم يكن يعرف كيف يعزق الأرض بالفأس ،
ولا أن يغرس البراعم الصغيرة في الأرض ، ولا أن
يقتلع (بالمنجل) الأفنان القديمة من الأشجار العالية (٣٣) .
ما كانت تقدمه الشمس والأمطار ، وما كانت تنبته الأرض
من تلقاء نفسها ، كانت تلك الهبة تثلج صدورهم على نحوٍ كافٍ .
وكانوا ينعشون أجسادهم بين الأشجار المحملة بالجوز
على وجه الخصوص ، وثمار التوت البرى التي تراها الآن في
فصل الشتاء وقد صارت ناضجة بلونها القرمزى ،
وكانت الأرض حينها تنبتها بكميات أكثر وبحجم أكبر من الآن .
علاوة على ذلك فإن الحداثة المزدهرة للعالم قدمت وقتها الكثير
من الأطعمة الخشنة ، التي كانت تكفى لسد رمق البشر البؤساء.
لكن الأنهار والينابيع كانت تدعوهم ليطفئوا ظمأهم ، "

volgivago vitam tractabant more ferarum .
nec robustus erat curvi moderator aratri
quisquam , nec scibat ferro molirier arva
nec nova defodere in terram virgulta neque altis
arboribus veteres decidere falcibu' ramos .
quod sol atque imbres dederant , quod terra crearat
sponte sua, satis id placabat pectora donum .
glandiferas inter curabant corpora quercus
plerumque; et quae nunc hiberno tempore cernis
arbita puniceo fieri matura colore,
plurima tum tellus etiam maiora ferebat .
multaque praeterea novitas tum florida mundi
pabula dura tulit , miseris mortalibus ampla .
at sedare sitim fluvii fontesque vocabant,(Lucr. DRN 5.932-45)

وهكذا فإن التشابه اللفظى بين مفردات لوكريتيوس وهيسيودوس :

sponte sua = αυτοματη
plurima ..... mutlaque ....ampla =πολλον τε και αφθονον
dederunt = ζειδωρος

يثبت أن لوكريتيوس كان في ذهنه كلمات هيسيودوس ، إلا أن لوكريتيوس قد خالفه بأن وصف الطعام بأنه خشناً (pabula dura) ، واستخدامه لكلمة (pabula) يوضح أنه أقرب إلى طعام البهائم ، كما أن البشر لم يكونوا أشباه للآلهة بل بؤساء (miseri) [٣٤].

ذكر أصحاب نظرية العصر الذهبى أن الجنس الذهبى للبشر قد عاش في سلام وفى خضم من الخيرات وذلك لارتباطهم الوثيق بالآلهة :

وقد أقاموا في راحة وسلام فوق أرضهم الغنية بالكثير من الطيبات ،
والغنية بالقطعان ومحبوبون من الآلهة . "

.....οι δ' εθελημοι
ησυχοι εργ' ενεμοντο συν εσθλοισιν πολεεσσιν.
αφνειοι μηλοισι, φιλοι μακαρεσσι θεοισιν.
(Hes. Op. 118-120)

ويعد غياب القوانين من أهم السمات الرئيسية للعصر الذهبى في الموروث الإغريقى [٣٥]:

" لأن هؤلاء الذين ولدوا في تلك الفترة من تاريخ العالم
كانوا لا يعرفون فن الكتابة ، بل عاشوا باتباع العرف وهو
ما يطلق عليه " قوانين الآباء " .

.....ουδε γαρ γραμματα εστι πω
τοις εν τουτω τω μερει της περιοδοι γεγονοσιν,
αλλ' εθεσι και τοις λεγομενοις πατριοις νομοις
επομενοι ζωσιν. (Plato Leg . 3.680a)

" العصر الذهبى هو أول (عصر) جاء ، وهو الذي كان يرعى
الإخلاص والإستقامة بشكل تلقائى ، بدون إكراه وبدون قانون "

Aurea prima sata est aetas , quae vindice nullo ,
sponte sua , sine lege fidem rectumque colebat .

(Ov. Met. 1.89-90)

وذلك لأن الإ له كرونوس كان يحكمهم بشكل مباشر [٣٦] :

" لأن الإله كان يرعاهم بنفسه ، فهو مطلع عليهم ،"

θεος ενεμεν αυτους αυτος επιστατων,

(Plato Pol.271e)

ولعلهم كانوا لا يحتاجون لقوانين لأنهم كانوا بطبيعتهم مسالمون :

" لأنه فيها لا يوجد مجال لظهور الوقاحة والظلم والتنافس

والغيرة . لذا فقد كانوا طيبون ، للأسباب السابقة ،

وبسبب بساطة عقولهم كما يُقال ."

ουτε γαρ υβρις ουτ᾽ αδικια, ζηλοι τε αυ και φθονοι ουκ εγγιγνονται. αγαθοι μεν δη δια ταυτα τε ησαν και δια την λεγομενην ευηθειαν·

(Plato Leg. 3.679 c)

ومرة أخرى يتفق لوكريتيوس مع موروث العصر الذهبى في مسألة افتقار البشر للقوانين، ولكنه يحاول تبرير ذلك على نحو عقلانى حيث يعزوه إلى الجهل وعدم القدرة :

" ولم يكن بإمكانهم أن يفكروا في الصالح العام ، وكانوا لايعرفون

كيف يضعون فيما بينهم أية أعراف وأية قوانين . "

nec commune bonum poterant spectare neque ullis moribus inter se scibant nec legibus uti .(Lucr . DRN 5. 958f.)

ولكن البشر لدى لوكريتوس على النقيض من الموروث الأسطورى ليسوا عادلون بالفطرة ولا متعاونون . بل على العكس فكل إنسان لا يهمه سوى نفسه فهو ينتزع من الآخرين كل ما يحتاج إليه :

" منح الحظ قدراً من الرزق لكل فرد ، وظفر به كل منهم ،

بعد أن تعلم بإرادته كيف يعيش وكيف يحمى نفسه من أجل نفسه ."

quod cuique obtulerat praedae fortuna , ferebat sponte sua sibi quisque valere et vivere doctus.(Lucr. DRN 5. 960f.)

وكانت لا توجد دول أو أنظمة حكم ولا حياة أسرية في موروث أسطورة العصر الذهبى :

" وفى ظل رعايته (أى كرونوس) لم تكن هناك دول ، ولم
يمتلك الرجال زوجات ولا أطفال ."

.....νεμοντος δε εκεινου πολιτεια τε ο υκ ησαν ουδε κτησεις γυναικων και παιδων· (Plato Pol. 271e-272a)

وصف لوكريتيوس العلاقة الجنسية ، التي كانت نواة للحياة الأسرية ، على نحو بهيمى ، فهى تتم بالإكراه أو بالرشوة :

" وجمعت فينوس بين أجساد المحبين في الغابات ،
لأن الرغبة المتبادلة كانت تربط كل امرأة (برجل) ،
أو (يربطها به) قوة الرجل العنيفة والشهوة المحمومة
أو المقابل المادى ، كجوز البلوط والتوت البرى والكمثرى المنتقاه [٣٧] .

et Venus in silvis iungebat corpora amantum ;
conciliabat enim vel mutua quamque cupido
vel violenta viri vis atque inpensa libido
vel pretium , glandes atque arbita vel pira lecta .
(Lucr. DRN 5 . 962-5)

في أسطورة العصر الذهبى كان البشر والحيوانات يعيشون في وئام فقد كانت الحياة النباتية هى سمة مشتركة ، ويقول هيسيودوس أن الجنسى البرونزى ، الذي خلقه زيوس ، قد ترك الحياة النباتية :

" وكانوا لا يأكلون الخبز ، "

ουδε τι σιτον ησθιον, (Hes. Op. 146f.)

ويؤكد أراتوس على نفس المعنى حيث يقول إن الجيل البرونزى هو أول من قام بصناعة السيوف وأكل لحوم الثيران التي تحرث الأرض ، وهو أسوأ ما ارتكبه أبناء هذا الجيل :

" وكانوا أول من أكل لحوم الثيران التي تجر المحاريث "

πρωτοι δε βοων επασαντ' αροτηρων (Arat . Phaen . 132)

قلب لوكريتيوس هذه الصورة رأساً على عقب فالبشر كانوا يصطادون الحيوانات ويأكلون لحومها:

"وبالإعتماد على القوة المذهلة لأيديهم وأرجلهم
كانوا يصطادون قطعان الحيوانات البرية
بقذائف من الحجارة والشوكات (الحجرية) بالغة الثقل ،
وكانوا يمسكون الكثير من الحيوانات ، والقليل منها كان يفر إلى مخابئها . "

et manum mira freti virtute pedumque
consectabantur silvestria saecla ferarum
missilibus saxis et magno pondere clavae ;
multaque vincebant , vitabant pauca latebris ;
(Lucr. DRN 5 . 966-9)

وفى المقابل كانت الوحوش تلتهمه وتقض مضجعه بالليل ، وكانت هجماتها هى السبب الرئيسى في موته ميتة بشعة :

"بل كان همهم البالغ هو ذلك : أن فصائل الوحوش
كانت دائماً تجعل النوم خطراً على هؤلاء البؤساء.
فكانوا يغادرون مأواهم ويفرون من كهوفهم الصخرية
عندما يقترب منهم خنزير يسيل لعابه أو أسد قوى ،
وفى جوف الليل كانوا يتركون ، وقد تملكهم الرعب ،
فراشهم المغطى بأوراق الشجر لضيوفهم المفترسين."

sed magis illud erat curae , quod saecla ferarum
infestam miseris faciebant saepe quietem .
eiectique domo fugiebant saxea tecta
spumigeri suis adventu validique leonis
atque intempesta cedebant nocte paventes
hospitibus saevis instrata cubilia fronde .(Lucr. DRN 5 . 982-7)

" حقاً لقد كان كل إنسان وقتها يبدو أكثر كطعام حى للوحوش
إذ كانت تقتنصه وتلتهمه بأسنانها ،
وكان يملأ الأحراش والجبال والغابات بالأنين ،
فقد كان يرى أن أعضاء جسده الحى تدفن في قبر حى [٣٨] .
أما هؤلاء الذين أنقذهم الفرار بعد أن تهتكت أجسادهم ،

فإنهم بعد ذلك يضعون أيديهم المرتجفة على قرحهم الموجعة ،
وينادون على أوركوس (أى بلوتو) بصرخات يملأها الرعب ،
إلى أن تقضى آلامهم المبرحة على حياتهم ،
بلا عون من أحد ، فقد كانوا يجهلون (العلاج) الذي تحتاج إليه الجروح ."

unus enim tum quisque magis deprensus eorum
papula viva feris praebebat , dentibus haustus,
et nemora ac montis gemitu silvasque replebat
viva videns vivo sepeliri viscera busto.
at quos effugium servarat corpore adeso,
posterius tremulas super ulcera taetra tenentes
palmas horriferis accibant vocibus Orcum,
donique eos vita privarant vermina saeva
expertis opis , ignaros quid volnera vellent. (Lucr. DRN 5 . 990-8)

وهذه الصورة المروعة لموت الإنسان الأول على هذا النحو البشع هى النقيض تماماً للصورة التي رسمها هيسيودوس لموت أبناء الجنس الذهبى :

" وعندما كانوا يموتون فقد كانوا كمن أخذته سنة من النوم ،
فقد كان لديهم كل الطيبات من الرزق ."

θνῃσκον δ' ωσθ' υπνῳ δεδμημενοι· εσθλα δε παντα
τοισιν εην· (Hes. Op.116f.)

وهذا الشطر الأخير من كلمات هيسيودوس ينقضه لوكريتيوس :

" وفى تلك الأيام كان نقص الطعام يجلب الموت لأجسادهم
الواهنة ، وعلى النقيض فإن وفرة الأشياء في عصرنا تغمر البشر ."

tum penuria deinde cibi languentia lecto
membra dabat ,contra nunc rerum copia mersat.
(Lucr. DRN 5. 1007 f.)

وهكذا فإن لوكريتيوس أراد أن يقدم صورة عقلانية لحال الإنسان الأول ويفضح زيف الأساطير .

كانت أساطير العصر الذهبى تتحدث عن غياب فن الملاحة والقتال :

" وكان البشر لا يعرفون أية شواطئ سوى شواطئهم. "

nullaque mortales praeter sua litora norant ; (Ov. Met. 1.96)

ويأتى أول ذكر للسفن عند هيسيودوس في عصر الأبطال عندما أبحر الإغريق إلى طروادة من أجل هيلينا [٣٩] .

وهذا أفلاطون يذكر في أكثر من موضع جهل الناس بفنون القتال في ذلك العصر[٤٠]:

" ولم توجد حرب فيما بينهم أو أى نزاع من هذا القبيل ."

πολεμος τε ουκ ενην ουδε στασις το παραπαν·

(Plato Pol. 271e)

وفى هذه النقطة يتفق لوكريتيوس مع الموروث الأسطورى في جهل البشر بفن الملاحة والقتال ، فهو هنا يقترب من نغمة الحنين للماضى الموجودة عند هيسيودوس ، وقام بمقارنة عصره بالحياة البدائية ليدين المجتمع الرومانى المتحضر وذلك من دون إعطاء صورة مثالية للمجتمع في فترة ما قبل معرفة وسائل الحياة الحديثة :

" لكن اليوم الواحد كان لا يجلب الموت لآلاف
كثيرة من الرجال التي تُقاد تحت رايات القتال ، ولم تكن أمواج
البحرالمضطربة تحطم السفن والبحارة فوق الصخور .
وكان البحر حينها كثيراً ما يرتفع ويثور بلا هدف أو غاية
وبلا جدوى ، ثم يهدأ برفق من تهديداته الجوفاء ،
وليس بإمكان الإغواء المخادع للبحر الهادئ أن يغرى
بأمواجه البسامة أى فرد ليقع في شركه .
وكان فن الملاحة الجسور لا يزال مستوراً وقتها . "

at non multa virum sub signis milia ducta
una dies dabat exitio nec turbida ponti
aequora lidebant navis ad saxa virosque .
hic temere incassum frustra mare saepe coortum
saevibat leviterque minas ponebat inanis ,
nec poterat quemquam placidi pellacia ponti
subdola pellicere in fraudem ridentibus undis.
improba naviregi ratio tum caeca iacebat.

(Lucr. DRN 5 999-1006)

وبالرغم من أن لوكريتيوس لم يتحدث عن حدوث قتال بين البشر في هذه الفترة المبكرة من عمر الأرض وتحدث فقط عن الصراع مع الحيوانات ، فإن حديثه لاحقاً عن اتفاق البشر بعدم الإعتداء على بعضهم البعض [٤١] يوحى بأن السلام والنوايا الحسنة لم تكن موجودة بينهم في السابق .

والحق أن اتفاق لوكريتيوس مع بعض ماورد في الأساطير يوضح أنه كان قادراً أن يجذب الإنتباه إلى السمات المرغوب فيها بالمجتمع البدائى بدون قبول عناصر الخيال أو التدخل الإلهى . ولكنه أيضاً يرفض أن يرسم صورة مثالية ، حيث يشد الانتباه إلى الصعوبات والسمات الأخرى لحياة الإنسان الأول التي تتناقض مع الموروث الأسطورى.

يقول D.R.Blickman إن بناء تقرير لوكريتيوس عن تاريخ الحضارة (1457-5.925) كان متجانساً تماماً ، وهو يحتوى على ثلاثة أقسام رئيسية : وجود الجنس البشرى البدائى (1010-925) ، بداية تكوين المجتمع ومعرفة اللغة والنار (1104-1011)، نشأة الفكر الدينى وتطور المدن والأعراف السياسية والفنون والرفاهية (1457-1105) ،ويعد الجزء الخاص بالديانة (1240-1161) هو الجزء المحورى للتقرير كله فهو من ناحية يعتبر النقطة الرئيسية في مراحل تطور البشرية ، ومن ناحية أخرى يخدم كتمهيد للجزء الأيتولوجى بالتقرير (1457-1124) [٤٢] .

وإذا كان وصف لوكريتيوس للمرحلة الأولى من نظريته لتطور الجنس البشرى ، أى المرحلة البدائية ، يمكن ربطها بأسطورة العصر الذهبى ، فإن المرحلة الثانية التي يصف فيها بداية الحضارة واكتشاف الإنسان للنار واللغة والمعادن وإقامة المجتمعات يمكن ربطها بالعصور المعدنية الأخرى أى الفضى والبرونزى والحديدى .

يقول J.G. Griffiths إن تقرير لوكريتيوس عن تاريخ الحضارة يرتبط بشكل وثيق بترتيب العصور المعدنية عند هيسيودوس [٤٣] . فطبقاً للوكريتيوس فإن أدوات الإنسان البدائى كانت من الحجر أو الخشب ، ومع اكتشاف المعادن نرى نفس الترتيب الهيسيودى للمعادن حيث استخدام الذهب والفضة في البداية ، إلا أنهما ، بالرغم من قيمتهما ، لم يثبتا نفعهما إذ حل البرونز محلهما وذلك لأنه أكثر صلابة منهما :

" وحاولوا في البداية أن يصنعوا تلك (الأدوات) من الفضة
والذهب ، وذلك على نحو ليس أقل من البرونز بصلابته ومادته المتينة ،
لكن دون جدوى ، حيث أن قوتهما استسلمت بعد انحنائهما ،
فلم يكن يكن باستطاعتهما هما الإثنان أن يتحملا العمل الشاق. "

nec minus argento facere haec auroque parabant
quam validi primum violentis viribus aeris,
nequiquam , quoniam cedebat victa potestas
nec poterant pariter durum sufferre laborem .

(Lucr. DRN 5 .1269-27)

وبعد اكتشاف الإنسان للحديد حل محل البرونز :

" بعد ذلك تم اكتشاف قوة الحديد والبرونز .
وكان استخدام البرونز معروفاً قبل (استخدام) الحديد ،
إذ أن طبيعته أكثر سهولة وهو أكثر وفرة .
فبالبرونز كانوا يحرثون تربة الأرض ، وبالبرونز كانوا يثيرون
أمواج الحرب ، ويتسببون في الجروح الغائرة .
وكانوا يسلبون (جيرانهم) من ماشيتهم وحقولهم ، لأن كل الأشياء
المجردة وغير المسلحة تستسلم بسهولة لتلك المسلحة .
بعد ذلك وتدريجياً ظهر السيف الحديدى ،
وصار نمط المنجل المعقوف محل احتقار ،
فبالحديد بدأوا يشقون تربة الأرض ،
وصارت الصراعات في ميدان القتال الآن متكافئة . "

posterius ferri vis est aerisque reperta .
et prior aeris erat quam ferri cognitus usus,
quo facilis magis est natura et copia maior .
aere solum terrae tractabant , aereque belli
miscebant fluctus et vulnera vasta serebant
et pecus atque agros adimebant ; nam facile ollis
omnia cedebant armatis nuda et inerma .
inde minutatim processit ferreus ensis
versaque in obprobrium species est falcis ahenae,

et ferro coepere solum proscindere terrae
exaequataque sunt creperi certamina belli.
(Lucr . DRN 5. 1286-96)

وهكذا فإن اكتشاف المعادن واستخدامها جاء موافقاً للعصور التي حددها هيسيودوس (الذهبى ، الفضى ، البرونزى ، الحديدى) ، وفى هذا الجزء نجد تشابه واضح فالتكرار البلاغى (anaphora) لكلمة aere عند لوكريتيوس (aere….. aere,1289f) يشبه إلى حد كبير عبارة هيسيودوس وما بها من تكرار بلاغى لكلمة برونز [٤٤] :

" كانت أسلحتهم من البرونز ، ومنازلهم من البرونز ،
وبالبرونز عملوا في الأرض ."

των δ' ην χαλκεα μεν τευχεα, χαλκεοι δε τε οικοι χαλκῳ δ' ει ργαζοντο· (Hes. Op. 150f.)

إن تسلسل المعادن عند هيسيودوس قد أعطى للوكريتيوس الفرصة للتأكيد على الطبيعة المتدرجة في تطور الجنس البشرى [٤٥] ، ولكنه من ناحية أخرى أضفى الصبغة العقلانية على تقرير هيسيودوس . ربط هيسيودوس بين تسلسل المعادن وبين السلوك العدوانى لدى البشر فالجنس الذهبى كان يعيش في سلام وأمان (Op.119) ، وبدأ العنف في العصر الفضى :

" لأنه لم يكن باستطاعتهم عدم الوقوع في الذلل
والكف عن إلحاق الأذى ببعضهم البعض ."

..... υβριν γαρ ατασθαλον ουκ εδυναντο
αλληλων απεχειν, (Hes. Op.134f.)

ويزداد العنف مع أهل الجنس البرونزى المقاتل :

" لقد أحبوا أعمال آريس المحزنة وأعمال العنف ،
وكانوا لا يأكلون الخبز ، ولكن قلوبهم كانت قاسية مثل
حجر الأدمنت، فهم أناس مخيفون ."

..... οισιν Αρηος
εργ' εμελεν στονοεντα και υβριες· ουδε τι σιτον
ησθιον, αλλ' αδαμαντος εχον κρατεροφρονα θυμον,
απλαστοι· (Hes. Op.145-7)

وزاد هذا العنف في عصر الأبطال :

" أهلكت الحرب الضروس والقتال العنيف بعضهم ، "

και τους μεν πολεμος τε κακος και φυλοπις αινη,
..... ωλεσε ..... (Hes. Op.161-3)

ويصل العنف إلى ذروته في العصر الجديدي :

" سينهب المرء مدينة الآخر ، "

ετερος δ' ετερου πολιν εξαλαπαξει. (Hes. Op .189)

"بل إن الناس سيمدحون الشرير وأعماله العنيفة .

ستصير القوة هى الحق ، وسيتلاشى الإحترام عن الوجود،

وسيؤذى الشرير الرجل الخلوق فيلفق ضده الأكاذيب ،

ويقسم عليها (بأغلظ) الأيمان ."

..... μαλλον δε κακων ρεκτηρα και υβριν
ανερες αινησουσι· δικη δ' εν χερσι, και αιδως
ουκ εσται· βλαψει δ' ο κακος τον αρειονα φωτα
μυθοισιν σκολιοις ενεπων, επι δ' ορκον ομειται.
(Hes.Op.191-4)

وجدير بالذكر أن هيسيودوس تحدث عن العصر الحديدى وهو عصره في زمن المستقبل كما لو كان يبوح بإحدى النبوءات . فقد تصور أن الشرور التي ابتلى بها هذا الجيل هى نتيجة للآثار المتراكمة من العصور السابقة. (٤٦)

ربط لوكريتيوس أيضاً بين المعادن وبين زيادة العنف في ميدان القتال ، فهو لم ينكر وجود العنف في جميع مراحل تطور الإنسان حضارياً ، ففى البداية كانت الأسنان والأظافر هى أدوات القتال الوحيدة ، لكن مع اكتشاف الإنسان للمعادن بدأ في صناعة أدوات الزراعة ثم السلاح ، وقد صنعهما من الذهب والفضة أولاً ، ثم من البرونز ، ومع اكتشاف الحديد غلب على لوكريتيوس الحديث عن صناعة السلاح على صناعة الأدوات الزراعية . على أية حال فإنه يوجد اختلاف جوهرى بين تقريرى هيسيودوس ولوكريتيوس ، فعند الأخير كان العنف موجوداً من قبل اكتشاف المعادن ، إلا أن المعادن جعلت الفعالية القتالية أكثر فتكاً (٤٧) . هذا كما أن لوكريتيوس قد وظف فكرة اكتشاف المعادن وزيادة العنف في إظهار مراحل التطور الحضارى ، فالعنف قد دفع الناس إلى سن القوانين :

" وذلك لأن الجنس البشرى ، بعد أن أنهكه العيش في عنف ،
قد صار واهناً من العداوات ، وعلى ذلك فقد صار أكثر استعداداً
للخضوع للقوانين والدساتير الصارمة وذلك عن طيب خاطر .
لأن كل إنسان في غضبه كان مستعداً للثأر لنفسه
على نحو أكثر قسوة مما تسمح به الآن القوانين العادلة ،
ولهذا السبب كان البشر قد ضجروا العيش في ظل العنف . "

nam genus humanum , defessum vi colere aevom,
ex inimicitiis languebat ; quo magis ipsum
sponte sua cecidit sub leges artaque iura .
acrius ex ira quod enim se quisque parabat
ulcisci quam nunc concessumst legibus aequis ,

hanc ob rem est homines pertaesum vi colere aevum .
(Lucr . DRN 5 1145-50)

استخدم هيسيودوس فكرة المعادن للتعبير عن الإنحدار والتدهور الأخلاقى لأجيال البشر :

" ثم خلق ساكنوا جبل الأوليمبوس جيلاً آخر فضى ، وهو أقل
نبلاً بكثير ، ولا يشبه الجيل الذهبى ، لا من حيث الجسد
ولا من حيث الروح . وكانت الأم تربى وليدها إلى جوارها
مائة عام ، وهو ساذج تماماً ، يلهو على نحو طفولى في منزله .
ولكن عندما يبلغون عنفوان الشباب ويقتربون من سن الكهولة الناضجة
كانوا يعيشون لفترة قصيرة في أسى وذلك نظراً لحماقتهم ، "

δευτερον αυτε γενος πολυ χειροτερον μετοπισθεν
αργυρεον ποιησαν Ολυμπια δωματ᾽ εχοντες,
χρυσεῳ ουτε φυην εναλιγκιον ουτε νοημα.
αλλ᾽ εκατον μεν παις ετεα παρα μητερι κεδνῃ
ετρεφετ᾽ αταλλων, μεγα νηπιος, ῳ ενι οικῳ.
αλλ᾽ οτ᾽ αρ᾽ ηβησαι τε και ηβης μετρον ικοιτο,
παυριδιον ζωεσκον επι χρονον, αλγε᾽ εχοντες
αφραδιῃς· (Hes.Op.127-34)

على أية حال فإن الإنسان عند لوكريتيوس عندما تمكن من تحقيق أول إكتشافاته الهامة وهى الملبس والمأوى والنار ، ومن قبل أن يعرف المعادن كان آخذاً في التطور نحو الحياة الحضارية حيث بدأ في خلق روابط الصداقة والارتباط الأسرى وتكوين المجتمعات:

" بعد ذلك عندما حصلوا على الأكواخ والجلود والنار ،
وارتبطت المرأة برجل واحد وأقامت معه في مسكن واحد ،
(وصارت أعراف الزواج) معروفة ، ورأوا إنجابهم للذرية ،
عندئذ بدأ الجنس البشرى في الليونة للمرة الأولى .
لأن النار جعلت أجسادهم لا تستطيع أن
تتحمل البرد تحت سقف السماء بعد ذلك .
ودغدغ الحب قواهم ، وحطم الأطفال بملاطفتهم
طباع والديهم الحادة وذلك بكل سهولة .
بعد ذلك بدأ الجيران بلهفة في إقامة الصداقة (٤٨)
فيما بينهم ولا يؤذون أو يستخدمون العنف فيما بينهم
واستوصوا بالأطفال وبجنس النساء خيراً ،
وعبروا بالصرخات والإيماءات والتمتمة
بأنه من الصواب أن يشفق الجميع على الضعفاء.
على أية حال فالوئام لم يكن بإمكانه أن يحدث بشكل كامل ،
إلا أن الجانب الأفضل والأكبر كان يحافظ على المواثيق نقية ،
وإلا كان الجنس البشرى بأكمله سيفنى حينها ،
ولم يكن بإمكان الذرية أن تواصل إنجاب أجيال إلى الآن . "

Inde casas postquam ac pellis ignemque pararunt,
et mulier coniuncta viro concessit in unum
cognita sunt prolem ex se videre creatam ,
tum genus humanum primum mollescere coepit .
ignis enim curavit ut alsia corpora frigus
non ita iam possent caeli sub tegmine ferre ,

et Venus inminuit viris puerique parentum
blanditiis facile ingenium fregere superbum .
tunc et amicitiam coeperunt iungere aventes
finitimi inter se nec laedere nec violari,
et pueros commendarunt muliebreque saeclum,
vocibus et gestu cum balbe significarent
imbecillorum esse aecum misererier omnis .
nec tamen omnimodis poterat concordia gigni,
sed bona magnaque pars servabat foedera caste;
aut genus humanum iam tum foret omne peremptum
nec potuisset adhuc perducere saecla propago.
(Lucr. DRN 5 . 1011-7)

يبدو واضحاً في هذه الفقرة أن لوكريتيوس كان في ذهنه وصف هيسيودوس للجنس الفضى ، فهو أول جيل تظهر فيه بعض ملامح الحياة الأسرية (130) ، كما أن وصف هيسيودوس لهم بالسذاجة والرقة كالأطفال (131) يشبه وصف لوكريتيوس للإنسان فى أولى خطواته نحو التحضر بأنه صار رقيقاً ليناً (mollescere, 1014) ومثلما أن العنف قد بدأ في الظهور في العصر الفضى (.134f) ، فإن العنف عند لوكريتيوس كان لا يزال موجوداً ولكن في حدود ضيقة (1024) [٤٩] .

على أية حال فإن الصورة التي قدمها لوكريتيوس هى النقيض تماماً لرؤية هيسيودوس التي تجعل الإنسان يبدأ حياته في العصر الذهبى ثم يأخذ في الإنحدار من هذه الحالة السامية . فعلى العكس من ذلك فإن أولى خطوات الإنحدار في تطور الحياة المدنية بدأ عند لوكريتيوس عندما قسم البشر الممتلكات فيما بينهم عقب اكتشافهم للذهب (aurumque repertum,1113) أى الثروة ، ولعله يقصد بالذهب العملات الذهبية أى المال. [٥٠] على أية حال فالحديث عن المعادن عند لوكريتيوس لا يعبر عن التدهور الأخلاقى كما هو الحال عند هيسيودوس ، بل يعبر عن إمكانية استخدام الاكتشافات في تطوير أحوال البشر ، كأن تستخدم في تطوير أدوات الزراعة ، إلا أن قوة المعادن مع الأسف كانت في خدمة الموت أكثر من كونها في خدمة الحياة [٥١].

استخدم أراتوس فكرة العصور المعدنية (الذهبى ، الفضى ، البرونزى) على غرار هيسيودوس إلا أنه اتخذ من ربة العدالة (Dike) رمزاً للتدهور الأخلاقى ، ففى

العصر الذهبى كانت الربة تعيش بين البشر وتزرع الأرض لهم بمساعدة الثور، فلا يجوع الإنسان ولا يشقى (.112f) ، وعندما جاء الجيل الفضى انسحبت الربة إلى الجبال وأصبحت وحيدة ، وكانت تعود في المساء لتختلط مع قليل من الرجال ، ولكنها لم تكن بنفس الحماس الذي أظهرته للجنس الذهبى (116) ، فقد اشتغل أهل هذا الجيل بالتجارة (8-123) ، وتتوقع الربة أن ينجب هذا الجيل ذرية أكثر فساداً منهم ، وهو الجيل البرونزى . وعندما جاء الجيل البرونزى ، الذي صنع السيوف وذبح الثور وأكل لحمه ، فإنها تعلن عن رحيلها عن دنيا البشر وأنهم لن يروا وجهها مرة أخرى (132) [٥٢] .

وهنا يقدم لوكريتيوس رؤية عكسية لرواية أراتوس عن الجنس البرونزى ورحيل ربة العدالة حيث يصور أن الدين ظل يرهب البشر بوجهه المخيف من السماء إلى أن تمكن إبيقوروس من مواجهته ورفع عينيه في وجهه بلا خوف :

" عندما دبت حياة البشر على الأرض فإنها ،
كما هو واضح للعيان ، قد عانت من وطأة الدين ،
الذي كان يطل برأسه من أقطار السماء ،
حيث يزعج البشر بمظهره المخيف ،
في البداية تجاسر رجل إغريقى (أى إبيقوروس) بأن رفع عينيه
البشريتين في وجه (الدين) ، وكان أول إنسان يقف في مواجهته ، "

Humana ante oculos foede cum vita iaceret
in terris oppressa gravi sub religione
quae caput a caeli regionibus ostendebat
horribili super aspectu mortalibus instans ,
primum Graius homo mortalis tollere contra
est oculos ausus primusque obsistere contra ,
(Lucr. DRN 1.62-7)

إن رحيل ربة العدالة عن الأرض لسخطها على البشر لأنهم ذبحوا الثور عند أراتوس هو أمر أهون بالنسبة للجنس البشرى من طغيان الدين عليهم ، فتقديم أجاممنون ابنته

إفيجينيا قرباناً للآلهة باسم الدين لا يتساوى على الإطلاق مع تقديم الإنسان للثور قرباناً للآلهة عند أراتوس (٥٣).

تقول M.Gale إن الهدف الرئيسى من وصف لوكريتيوس لمراحل تطور الجنس البشرى هو توضيح الطبيعة المتدرجة للتطور وغياب التدخل الإلهى عن تطور الحضارة ، وكذلك تمجيد إنجازات إبيقوروس من خلال إظهار أن تعاليم إبيقوروس نحتاج إليها دائماً ، حيث أنه لم يوجد عصر كان الإنسان يعيش فيه في سلام وخيرات ، حتى في الفترة المبكرة ذاتها كان الإنسان بهيمى السلوك وعنيف وعرضة لهجمات الحيوانات المفترسة . فالعبارة (infestam….. quietem ,983) تجمع بين كلمتين متناقضتين ، وهى ذات دلالة إبيقورية ، فهى تجذب الانتباه إلى استحالة الحصول على السكينة العقلية والنفسية بدون الحصول على الأمان للجسد ، فالإنسان البدائى كان يعانى من فتك الوحوش به . وبالرغم من أن الرومان في عصر لوكريتيوس قد منحتهم الحضارة والتطور وسائل تحقيق الأمان لأجسادهم وتحقيق الراحة ، إلا أن الطمع والرغبات اللا محدودة في الرفاهية تقودهم إلى المزيد من العنف والمعاناة (٥٤) .

ولهذا فإنه في استهلال الكتاب السادس يصور إبيقوروس بأنه ذروة وقمة (cacumen) التطور الذي بلغته مراحل تطور البشرية ، فهو الذي قدم للبشرية الفرصة لبلوغ السكينة العقلية التي تسمح لهم بالاستمتاع بالأمان البدنى الذي ينعمون به الآن .(٥٥)

إن موقف لوكريتيوس من التطور يبدو بأنه يتوافق مع المبدأ الإبيقورى :

" لا توجد متعة سيئة في حد ذاتها ،

ουδεμια ηδονη καθ᾽ εαυτο κακον. (Epic. KD 8)

وهكذا فإن التطور الحضارى وخاصة ابتكار الفنون كالموسيقى والغناء هو تطور غير ضرورى ولكنه يقدم متعة حقيقية ، بل إنه يعد مرغوباً فيه إذا أسهم في طرد الألم عن الجسد وإذا وضعت له ضوابطه . فلوكريتيوس يريد أن يظهر لنا أن الكثير من الاكتشافات التي وصفها في "تاريخ الحضارة " بها ازدواجية ، كالمعادن على سبيل المثال، فهى تعد ضارة في حالة إساءة استخدامها من قبل الذين يجهلون الهدف

الحقيقى من الحياة . وهذه الازدواجية يمكن إدراكها في البناء الكامل لتقريره عن " تاريخ الحضارة " الذين يميل إلى الإنقسام في صور مزدوجة من العناصر السلبية والإيجابية في تطور المجتمع . ففى الجزء الأول من التقرير (1010-925) قام باستئصال العناصر المثالية أثناء وصفه للحياة البدائية ، ثم أتبع ذلك بالتطورات الإيجابية (1104-1011) حيث بداية ظهور الحياة الأسرية والروابط الاجتماعية ، والملابس والمنازل والنار واللغة ، وهى التطورات التي بدورها تتوازن مع الصورة الأكثر سلبية (1240-1105) حيث تكديس الثروات والرغبة في القوة والطموح المدمر الذي يقود إلى الحرب . وكل هذا يقود الشاعر إلى أصول الفكر الدينى ، وهو التطور الأكثر ضرراً والذى جاء ليتوازن مع اكتشاف الإنسان للنار واللغة . يتناول لوكريتيوس بعد ذلك اكتشاف المعادن (80-1241) الذي يعد الأساس لتطورات سلبية -1281) (1349 وأخرى إيجابية (78-1350) . وأخيراً فإن الفنون التي مثلتها الموسيقى تبدو في بدايتها إيجابية (1411-1390) ، لكن الشاعر يتقدم ليوضح الطبيعة المحدودة لمثل هذه المتع (35-1412) . وينتهى الكتاب بملحوظة إيجابية حيث يقدم قائمة سريعة للاكتشافات التي تقود إلى " أقصى ذروة " (summum cacumen , 1457) من مراحل التطور التي تعدنا لاستهلال الكتاب السادس ، ولكن هذه الكلمات التي أنهى بها الكتاب الخامس تحمل في طياتها نذير شؤم وذلك لأن الوصول إلى القمة يعنى بداية السقوط والإنحدار ، فالتطور إذن هو شأن ذو طبيعة مزدوجة من وجهة نظر لوكريتيوس : ففى حين أنه يعد ميزة ، بل وضرورة ، حيث يمكن للإنسان أن يحصل على أمنه البدنى وهو يشبع لديه الكثير من رغباته الطبيعية، إلا أن الابتكارات الجديدة تفتح الباب دائماً لإساءة الاستخدام وهى تميل إلى الرغبة في التجديد ، تلك الرغبة التي تجهل حدود المتعة والألم [٥٦] .

كما رأينا فإن لوكريتيوس أثناء تصويره للمجتمع البدائى كان يشير باستمرار إلى عناصر من أسطورة العصر الذهبى . وعندما وصل إلى تناول التطور التكنولوجى ومعرفته للفنون فإنه يمكننا القول بأن موروث " المبدعين الأوائل " كان هو الخلفية التي عاد إليها [٥٧] .

طبقاً للموروث الأسطورى فإن النار هى هبة بروميثيوس للبشر فقد سرقها من الآلهة ليرفع من شأن البشر ويخرجهم من حالتهم البهيمية (٥٨) . وحيث أن لوكريتيوس يرفض التفسيرات الأسطورية بشكل عام ويريد أن يحل محلها التفسيرات العقلانية ، فإنه عند مناقشته لاكتشاف النار فإنة يلعب على وتر أنها هبة من السماء ، ولكن الصواعق وليس بروميثيوس هى القوة التي أنزلت النار السماوية كهدية للجنس البشرى :

" في الأصل أنزل البرق النار إلى الأرض من أجل البشر ،
ومنه مُنحت كل ألسنة اللهب (في الكون) .
حيث أننا نرى أن مواد كثيرة تشتعل بعد أن يمسها لهب من السماء ، "

fulmen detulit in terram mortalibus ignem
primitus , inde omnis flammarum diditur ardor .
multa videmus enim caelestibus inlita flammis
fulgere, (Lucr . DRN 5. 1092-5)

وبالرغم من أن لوكريتيوس ذكر احتمال آخر لأصل النار وهو احتكاك أفنان الأشجار بفعل الرياح إلا أنه كرر تصوير اكتشاف النار بأنها هدية باستخدام الفعل dare :

" فأى من تلك الأسباب كان بإمكانه أن يمنح النار للبشر . "

quorum utrumque dedisse potest mortalibus ignem . (1101)

ثم يضيف أن الشمس علمت البشر فن الطهى :

" بعد ذلك علمتهم الشمس طهى الطعام وإنضاجه بحرارة
لهبها ، حيث أنهم كانوا يرون أن أشياء كثيرة تنضج
وسط الحقول بعد أن أصابتها ألسنة آشعة الشمس وحرارتها . "

inde cibum coquere ac flammae mollire vapore
sol docuit , quoniam mitescere multa videbant
verberibus radiorum atque aestu victa per agros.
(Lucr . DRN 5 .1102-4)

وجدير بالذكر أن الصياغة اللغوية هنا تشبه التقارير اليوهومرية عن أصل الحضارة مثل ديودوروس الصقلى (1.13-29) ، هذا باستثناء أن المنعم على البشرية ومعلمها (sol docuit,1103) ليس من البشر أو أحد الآلهة بل إحدى الظواهر الطبيعية .

وبنفس الطريقة فإن لوكريتيوس ينسب معرفة الإنسان للزراعة إلى الطبيعة [٥٩] :

" لكن نموذج بذر الحبوب وأصل تطعيم النباتات
جاء أولاً من الطبيعة ذاتها خالقة الموجودات ."

At specimen sationis et insitionis origo
ipsa fuit rerum primum natura creatrix , (Lucr . DRN 5 . 1361f)

إن محاكاة الطبيعة وبراعة البشر ساهما في تطور فن الزراعة :

" حيث أن ثمار التوت والبلوط التي كانت تسقط من الأشجار
كانت تخرج في الوقت المحدد عدد من النبتات من تحت الأرض ،
ومن هنا أيضاً فإنه لمن المبهج للبراعم أن تتواجد على الأفنان ،
وأن تنبت شجيرات جديدة بالأرض في (كل) الحقول .
ومن هنا جربوا طرق الزراعة الواحدة تلو الأخرى لزراعة
قطعة أرض جيدة ولاحظوا أن الأرض تنتج الفاكهة
البرية بالرعاية الجيدة والحرث اللطيف . "

arboribus quoniam bacae glandesque caducae
tempestiva dabant pullorum examina supter ;
unde etiam libitumst stirpis committere ramis
et nova defodere in terram virgulta per agros .
inde aliam atque aliam culturam dulcis agelli
temptabant fructusque feros mansuescere terram
cernebant indulgendo blandeque colendo . (Lucr . DRN5 . 1363-69)

فمحاكاة الطبيعة واستخدام الإنسان لعقله وبراعته هو أمر جوهرى في مفهوم لوكريتيوس للتطور البشرى . وهنا نلمح أنه قد خالف الروايات الأسطورية التي تعزو معرفة الإنسان للزراعة على أنها هبة الربة ديميتر (كيريز) [٦٠] :

" وإنه لمن الأفضل أن نخبر كيف أنها كانت أول من قطعت القش
والحزم المقدسة لسنابل القمح ، وجعلت الثيران تقوم بدرسها ."

καλλιον, ως καλαμαν τε και ιερα δραγματα πρατα
ασταχυων απεκοψε και εν βοας ηκε πατησαι,
(Call.Hymn.6.19f.)

فالطبيعة عند لوكريتيوس هى التي تلعب دور معلمة البشر فالزراعة وخاصة القمح ليست من ابتكار أحد " المبدعين الأوائل ". وعلى نفس النحو فإن الطبيعة (natura) و "المنفعة " (utilitas) دفعتا الإنسان إلى إصدار الأصوات المختلفة التي تشكل أساس اللغة ، وإطلاق الأسماء على الأشياء :

" لكن الطبيعة دفعت (الناس) لإصدار أصوات متنوعة
بألسنتهم ، ودفعتهم الملائمة إلى إطلاق الأسماء على الأشياء ،
وبنفس الطريقة تقريباً فإن عدم القدرة على استخدام
الألسن تبدو بأنها تدفع الأطفال إلى استعمال الإشارة ،
عندما تجعلهم يشيرون بأصبعهم نحو الأشياء الموجودة أمامهم ،
لأن كل مخلوق يشعر أن بإمكانه استخدام قدراته الخاصة . "

At varios linguae sonitus natura subegit
mittere et utilitas expressit nomina rerum ,
non alia longe ratione atque ipsa videtur
protrahere ad gestum pueros infantia linguae ,
cum facit ut digito quae sint praesentia monstrent.
sentit enim vis quisque suas quoad possit abuti .
(Lucr. DRN 5. 1028-33)

وبذلك فإن الطبيعة والحاجة يحلان محل هرميس (مركوريوس) كمخترع للغة في الموروث الأسطورى :

" فعلى سبيل المثال ، فإنه طبقاً لهم قد وُضعت من قبل هرميس
لأول مرة اللغة المشتركة بين البشر ، وأُطلقت الأسماء على الكثير
من الأشياء التي لم تكن بعد قد حصلت على أسمائها ، "

Υπο γαρ τουτου πρωτον μεν την τε κοινην διαλεκτον διαρθρωθηναι και πολλα των ανωνυμων τυχειν προσηγοριας, την τε ευρεσιν των γραμματων γενεσθαι. (Diod.Sic.1.16.1)

ويؤكد أن لوكريتيوس كان في ذهنه موروث " المبدعين الأوائل " تلك المناقشة العقلانية التالية لمعرفة البشر للغة :

" وعلى ذلك فإن الإعتقاد بأن إنسان ما قد أطلق الأسماء

على الأشياء ، ومن ثم تعلم البشر المفردات الأولى ،
هو مجرد حماقة . لأنه لماذا كان بإمكان هذا الرجل أن يخصص
أسماء لكل الأشياء ، وأن يصدر الأصوات المتنوعة للسان ،
وفى نفس الوقت لا نعتقد أن بإمكان الآخرين أن يفعلوا ذلك الأمر ؟
بالإضافة إلى ذلك ، لو أن الآخرين لم يستخدموا هم أيضاً تلك
المفردات فيما بينهم ، فكيف تُغرس لديه معرفة هذا الاستخدام ؟
وكيف لهذا الرجل الواحد أن يحصل على مثل هذه القدرة من أول مرة ،
بحيث يعرف ويرى بعقله ما يريد أن يفعله ؟
وكذلك فإن رجلاً واحداً لم يكن بمقدوره أن يجبر الكثيرين
أو أن يخضعهم بالإكراه على الرغبة في تعلم أسماء الأشياء ".

proinde putare aliquem tum nomina distribuisse
rebus et inde homines didicisse vocabula prima ,
desiperest . nam cur hic posset cuncta notare
vocibus et varios sonitus emittere linguae,
tempore eodem alii facere id non quisse putentur ?
praeterea si non alii quoque vocibus usi
inter se fuerant , unde insita notities est
utilitatis et unde data est huic prima potestas ,
quid vellet facere ut sciret animoque videret ?
cogere item pluris unus victosque domare
non poterat , rerum ut perdiscere nomina vellent ;
(Lucr. DRN 5. 1041-51)

تقول M.Gale إن السبب وراء اختيار لوكريتيوس للفعلين subegit(1028) و expressit(1029) وما بهما من عنف يتوازنان مع تعبيرات الإجبار cogere…victos(1050) التي استخدمها لإظهار رفضه لفكرة أن أحد المبدعين الأوائل كان باستطاعته أن يوصل ابتكاره للآخرين ، فالطبيعة والمنفعة إذن كان لهما القدرة على تحقيق ما فشل فيه المبدعين الأوائل في الموروث الأسطورى .[٦١]

كان اكتشاف الموسيقى والأدوات الموسيقية ينسب إلى شخصيات أسطورية عديدة مثل أورفيوس (Orpheus) ، لينوس (Linus) ، أمفيون (Amphion) ، أبوللو

(Apollo) ، أثينا (Athena) وغيرهم . فالفلوت وهو الآلة الموسيقية الوحيدة التي ذكرها لوكريتيوس كان يُقرن بالإله بان (Pan) [٦٢] :

" كيف أن بان ابتكر الفلوت ، ..... "

ως ευρε πλαγιαυλον ο Παν, (Bion 5.7)

" بان هو أول من علم (الإنسان) صناعة العديد من العيدان من الشمع "

Pan primum calamos cera coniungere pluris
instituit, (Virg , Ecl. 2.32f.)

إلا أن لوكريتيوس يعزو أصوله إلى محاكاة صوت الريح وهو يجرى في أعواد القصب الأجوف :

" والرياح التي تصفر داخل الأعواد المجوفة هى أول من
علم الفلاحين أن ينفخوا داخل ساق نبات الشوكران ،
بعد ذلك وتدريجياً تعلموا الألحان الشجية العذبة ،
التي يصدرها الفلوت بعد أن ضغط عليه بأنامل العازف ."

et zephyri , cava per calamorum , sibila primum
agrestis docuere cavas inflare cicutas .
inde minutatim dulcis didicere querellas ,
tibia quas fundit digitis pulsata canentum ,
(Lucr. DRN 5. 1382-5)

وهكذا فإن الريح (zephyri, 1382) هى التي كانت تعلم (docuere,1383) الفلاحين إصدار الأصوات الموسيقية وليس أحد الآلهة ، وخاصة آلهة الريف التي تقول الأساطير أنهم من ابتكر الموسيقى الريفية ، وهو ما يجعل قصة بان تخطر على ذهننا ، التي تتحدث عن أصل اكتشاف عود القصب الأجوف [٦٣] .

وهكذا فإن تقرير لوكريتيوس عن أصل الموسيقى ينقض الرواية الأسطورية تماماً.

هناك نموذج أخير لصورة الطبيعة كمعلم نراه في حديثه الموجز عن ملاحظة الإنسان لظاهرة تعاقب فصول السنة :

" لكن الحارسان ، أى الشمس والقمر ، اللذان ينيران بضوئهما
من حولهما المنطقة الشاسعة الدوارة بالكون ،

قاما بتعليم البشر أن فصول السنة تتعاقب
وأن كل شئ يحدث بقانون ثابت وبنظام محدد ."

At vigiles mundi magnum versatile templum
sol et luna suo lustrantes lumine circum
perdocuere homines annorum tempora verti
et certa ratione geri rem atque ordine certo. (Lucr. DRN 5.1436-9)

ويعد أقرب مثال من الموروث اليوهومرى هوتلك الأبيات من مسرحية أيسخولوس " بروميثيوس مقيداً " حيث يعدد بروميثيوس الأشياء التي علمها للبشر ومن بينها علوم الفلك :

" وكانوا لا يعرفون أية علامة أكيدة للشتاء ولا للربيع المزهر
ولا للصيف المثمر ، ولكنهم كانوا يفعلون كل شئ بلا تفكير،
واستمروا على ذلك إلى أن علمتهم أن يتبينوا إشراق النجوم وأفولها ،
التي كان يصعب إدراكها "

ην δ' ουδεν αυτοις ουτε χειματος τεκμαρ
ουτ' ανθεμωδους ηρος ουτε καρπιμου
θερους βεβαιον, αλλ' ατερ γνωμης το παν
επρασσον, εστε δη σφιν αντολας εγω
αστρων εδειξα τας τε δυσκριτους δυσεις.

(Aesch.PV454-8)

في حين أن أساطير أخرى تنسب إلى هرميس اكتشاف علم الفلك :

" وكان هو أيضاً أول من لاحظ الترتيب المنظم للنجوم ، "

.....περι τε
της των αστρων ταξεως .....
πρωτον γενεσθαι.....
παρατηρητην, (Diod . Sic. 1.16.1)

استهل لوكريتيوس مناقشته لأصل الديانة بهذه الأبيات :

والآن أى سبب أدى إلى انتشار عبادة الآلهة بين
الكثير من الشعوب ، وملأ المدن بالمذابح ،
وجعل الشعائر الدينية المهيبة واجبة الآداء ،

تلك الشعائر التي تزدهر الآن وتُؤدى في المناسبات والأماكن الهامة ،
والتى منها غُرس الرعب إلى الآن في (نفوس) البشر ،
(الرعب) الذي يتسبب في تشييد معابد جديدة للآلهة في كل أنحاء العالم ،
ويدفع (الناس) على الإحتشاد في أيام الأعياد ،
وهذا الأمر ليس من الصعب تفسيره بالكلمات . "

Nunc quae causa deum per magnas numina gentis
pervulgarit et ararum compleverit urbis
suscipiendaque curarit sollemnia sacra,
quae nunc in magnis florent sacra rebu' locisque,
unde etiam nunc est mortalibus insitus horror
qui delubra deum nova toto suscitat orbi
terrarum et festis cogit celebrare diebus,
non ita difficilest rationem reddere verbis . (Lucr. DRN 5.1161- 8)

تقول M.Gale إن كلمة causa (1161) قد جسدها لوكريتيوس وجعلها مثل الإله الرحالة في الموروث الأسطورى الذي يجول العالم لينشر (pervulgarit,1162) عقيدته، ويقيم المذابح والشعائر أينما ذهب . وهذه الصورة تذكرنا بالرحلات التي قامت بها الآلهة اليوهومرية حول العالم ، مثل جوبيتر عند إنيوس في عمله " يوهوميروس " (٦٤) :

" وبهذه الطريقة بذر جوبيتر في كل أنحاء العالم بذور عبادته "

Hoc modo religionem cultus sui
per orbem terrarum Iuppiter seminavit…….(Enn. Euhem. 116f.)

وتهدف هذه الجولات بين الشعوب إلى جلب الحضارة والمنافع للبشر وكذلك إرساء شعائرهم الدينية . على أية حال فإن كلمة causa في تقرير لوكريتيوس ليست إلهاً مثل هؤلاء ، بل إنها " أطياف " (simulacra) الآلهة التي جعلت البشرية تدرك لأول مرة وجود الآلهة ، وتفسر وجودها تفسيراً خاطئاً :

" لأن أجيال البشر في تلك الأيام كانوا يرون
بأذهانهم الصورة المبهرة للآلهة ذات القامة العجيبة
لأجسادهن ، وذلك في يقظتهم وعلى نحو أكثر في منامهم

وعلى ذلك فقد نسبوا إليها امتلاك الحواس ، لأنها
قد بدت لهم بأنها تحرك أطرافها ، وتنطق بكلمات
سامية تليق بمظهرها الجليل وبنيانها القوى .
ومنحوها حياة خالدة ، وذلك لأن هيئتها
وشكلها يظلان دائماً بلا تغيير.
ولأنهم مع ذلك (٦٥) كانوا يعتقدون بالتأكيد أن كائنات بمثل هذه القوة
الهائلة ليس بالإمكان أن تُقهر بسهولة من أية قوة .
ولذلك كانوا يعتقدون أنها تتفوق (على البشر) إلى حد بعيد في (مسألة) السعادة،
وذلك لأن الخوف من الموت لا يزعج أياً منها ،
ولأنها في الوقت نفسه كانت تبدو لهم في الأحلام بأنها تؤدى الكثير
من الأعمال الخارقة ، وهى نفسها لا يصيبها نصب من تلك الأعمال . "

quippe etenim iam tum divom mortalia saecla
egregias animo facies vigilante videbant
et magis in somnis mirando corporis auctu.
his igitur sensum tribuebant proprerea quod
membra movere videbantur vocesque superbas
mittere pro facie praeclara et viribus amplis
acternamque dabant vitam , quia semper eorum
subpeditabatur facies et forma manebat ,
et tamen omnino quod tantis viribus auctos
non temere ulla vi convinci posse putabant.
fortunisque ideo longe praestare putabant,
quod mortis timor haut quemquam vexaret eorum ,
et simul in somnis quia multa et mira videbant
efficere et nullum capere ipsos inde laborem . (Lucr. DRN 5. 1169-82)

ما هو الهدف إذن من كل هذه الإشارات المستترة إلى موروث "المبدعين الأوائل "، وعلى وجه الخصوص الآلهة ؟ إنها تهدف في الأساس إلى تعزيز رفض لوكريتيوس لظهور أى تدخل إلهى في مراحل تطور الجنس البشرى . فالشاعر يستدعى إلى الأذهان ذلك الموروث ليعلن رفضه التام له ، إنها الطبيعة وليست كيريز ولا

بروميثيوس ولا غيرهما من الآلهة ، هى الطبيعة وحدها التي منحت بذور الحضارة للبشرية .

وهذه الإشارات تخدم أيضاً في التفسير المجازى للأسطورة ، فهى تفسر كيف نشأت الأساطير . فالمبدعون الأوائل في الموروث الأسطورى يجسدون مظاهر متنوعة للطبيعة أو للظواهر الطبيعية : فبروميثيوس يجسد الصاعقة ، وكيريز الخصوبة والقوة الخلاقة بالأرض ، وفولكانوس النار .... إلخ .

فالأسطورة تحتوى على شئ من الحقيقة [٦٦] ، فصانعوا الأساطير قد أخطأوا عندما نسبوا إلى الآلهة والأبطال الإنجازات التي هى في الحقيقة نتيجة لظواهر طبيعية ومعها إبداع البشر . فبينما يرفض لوكريتيوس تماماً فكرة أن الآلهة تشغل نفسها بشئون البشر، فإنه على أية حال يستخلص من الأسطورة كبد الحقيقة [٦٧] .

ويتضح معنى التطور عند لوكريتيوس في ضوء الغاية منه ، فأى مناقشة للتطور ذات صلة بالفلسفة الإبيقورية ينبغى أن ترتبط بالمفاهيم الإبيقورية ، والهدف جد واضح : إنه بالطبع بلوغ حياة المتعة ، طبقاً للمفهوم الإبيقورى ، أى التحرر من الألم والخوف ، أى بلوغ " السكينة (ataraxia) التي تتمتع بها الآلهة . ويعد ابتكار إبيقوروس لمبادئ الفلسفة الإبيقورية مسألة هامة جداً لبلوغ الإنسان للسعادة ، فهو تطور هام يفوق أى ابتكار لأى فن من الفنون . ويتضح من استهلال الكتاب الخامس أن هدايا إبيقوروس للبشرية تبز تلك التي قدمتها كيريز وغيرها من الآلهة[٦٨] .

ومما سبق يتضح لنا أن لوكريتيوس عند كتابته لتاريخ الحضارة قد وضع نصب عينيه أساطير الخلق الأول ، ففى تناوله للإنسان البدائى كان في ذهنه أساطير الجنس الذهبى. وفى تناوله للمرحلة الأولى من التطور كان في ذهنه باقى الأجناس المعدنية (الفضى ، البرونزى ، الحديدى) التي ذكرها هيسيودوس . وأخيراً عند تناوله للاكتشافات التي أدت إلى التطور الحضارى للإنسان كان في ذهنه أساطير " المبدعين الأوائل " . تلك الأساطير التي استغلها ليبرهن على زيفها أو أنها لا تتسم بالعقلانية ، كما استغل أساطير المبدعين الأوائل ليثبت أن إنجازات إبيقوروس التي أفادت البشرية تجعله أولى بأن يُعبد مثل باقى الآلهة .

ويهدف البحث أيضاً إلى إظهار التطور التدريجى للبشرية وهو العنصر الأساسى الذي تقوم عليه نظرية لوكريتيوس في تطور الجنس البشرى ، هذا بالإضافة إلى إظهار الاختلاف بينه وبين هيسيودوس الذي كان يرى أن هناك تغيراً أخلاقياً كان يطرأ على البشر ، وهو إلى الأسوأ دائماً ، بينما كان الإنسان عند لوكريتيوس يتطور دائماً إلى الأفضل وذلك بفضل زيادة المعرفة لديه وفهمه لطبيعة العالم من حوله .

الهوامش

١- Lucr. DRN 5. 380-415

يعتقد لوكريتيوس في هذه الفقرة أن عناصر الكون في حالة صراع ، فإذا تغلب أحدهم على العناصر الأخرى أدى ذلك إلى دمار الكون .

٢- M. Taylor , " Progress and Primitivism in Lucretius, " AJPh 68 (1947) p. 184 .

٣-يرى H.C. Baldry أن هيسيودوس لم يبتكر أسطورة العصر الذهبى ، فقد كان الإيمان بعصر الحياة السعيدة واسع الانتشار بين معاصرى هيسيودوس وأنه قد أخذ أشكالاً متعددة ، فالإشارات التي وردت في الأدب من بعد هيسيودوس تظهر تنوعاً واضحاً ، وهذا التنوع لا يمكن أن ننسبه إلى هيسيودوس وحده ، مما يدل على تعدد المصادر ، وكل هذا يبرهن على وجود موروث قديم ومنتشر كان متداولاً . وهذا الموروث له أصول غير إغريقية ، بل إنه قد وصل إلى الإغريق من الشرق ، حيث كانت هناك نماذج مماثلة كثيرة عند الشعوب الأخرى ، ففى الديانة المينوية نجد أن مفهوم "الجنة " (Elysium) قد وصل إلى الحضارة المينوية من مصر . ولعل إشارة هوميروس إلى الجنة (Hom.Od.4.561-9) هى إشارة أسبق على حديث هيسيودوس عن العصر الذهبى .

Baldry H.C. , " Who Invented the Golden Age ?" CQ n.s. 2 (1952) p. 84 .

٤- Aesch. PV 443 -506

٥- Pliny NH 7.57

٦- Diod. Sic. 1.13-29

٧- يقول ديودوروس الصقلى :

" بالإضافة إلى تلك الأشياء فإنهم يقولون بوجود آلهة أخرى أرضية ، كانت في الأصل من البشر، بيد أنها حظيت بالخلود من خلال حكمتها والمنافع التي جلبتها لكل البشر.

Αλλους δ' εκ τουτων επιγειους γενεσθαι
φασιν, υπαρξαντας μεν θνητους, δια δε συνεσιν
και κοινην ανθρωπων ευεργεσιαν τετευχοτας της
αθανασιας. (Diod. Sic. 1.13.1)

٨- Soph. Ant . 332-75 ; Anaxagoras fr. 21b

٩- M. Gale , Myth and Poetry in Lucretius, Cambridge (1994) p.158

انظر أيضاً :

K.J. Reckford , " Some Appearances of the Golden Age",CJ 54 (1958) p.79

١٠- Epic. Ep. ad Hdt. 75f.

١١- انظر على سبيل المثال هذه العبارات :

more ferarum (5.932)
miseris mortalibus (5.944)
squalida membra (5.956)
natura subegit ..... et utilitas expressit (5.1028f.)
specimen..... fuit ..... natura creatrix (5.1361f.)
usus et impigrae simul experientia mentis (5.1452)
minutatim (5.1305) , (5.1384)
alid ex alio (5.1305) , (5.1456)
inde aliam atque aliam culturam ..... temptabant (5.1367f.)
paulatim ..... pedetemptim ..... paulatim (5.1453f.)

١٢- C.R.Beye , " Lucretius and Progress, " CJ 58 (1963) p. 165

١٣- أهم المصادر التي تناولت هذه العناصر هى :

Hes.Op . 109-201 ; Emp. frs. 128, 130 ; Plato Pol. 269c-273e ,
Leg. 3. 677a- 679c ; Arat. Phaen . 96-136 ; Virg. Ecl. 4 , Geor. 1.15-59 ;
Tib . 1.3.35-52; Ov. Met . 1.76 – 215 .

١٤-العصور الخمسة هى : " الجنس الذهبى " ، " الجنس الفضى " ، الجنس البرونزى"، " عصر الأبطال " ، " الجنس الحديدى" . وقد تساءل بعض الدراسين عن ربط هيسيودوس أجيال البشر بالمعادن ، أهو ربط مجازى يعبر عن التدهور الأخلاقى ، أم أنه ربط حرفى يعبر عن استخدام كل جيل لأحد المعادن . وقد رأى أغلب الدارسين أن العصرين الذهبى و الفضى مجازيين تماماً فهما يعبران عن طبيعة أهل هذين العصرين . أما العصران البرونزى والحديدى فربما يعبران عن الواقع حيث اكتشاف هذه المعادن وانتشار استخدامهما ، وربما يعبران بشكل مجازى عن قسوة أهل هذين العصرين وميلهم إلى العنف والحرب . أما عصر الأبطال فهناك رأى بأنه يعبر عن الانتقال من

الأساطير إلى التاريخ وأن هيسيودوس يقدم لنا فقرة من الموروث الحقيقى المتعلق بالعصر الموكينى . ويعتقد بعض الدارسين أن الأبيات التي تتناول عصر الأبطال (9-161) قد أضافها الرابسيدوى عند احتفالهم بطيبة أو بسقوط طروادة ، ويرى آخرون أن هيسيودوس قد أضافها من باب التأثر بالموروث الملحمى وأن البناء الأصلى للعصور هو " الذهبى ، الفضى ، البرونزى ، الحديدى . "

J.G.Griffiths , " Archaeology and Hesiod's Five Ages", JHI 17 (1956) p. 109 .

وجدير بالذكر أن فرجيليوس الذي تأثر بهيسيودوس قد تنبأ في الرعوية الرابعة بعودة العصرالذهبى من جديد ، وأن هذه العودة ستعيد من جديد دورة العصور التي ستتجسد في ذلك الجيل القادم الذي سيبدأ بمولد الطفل المنتظر حيث سيمر بمراحل الطفولة (أى العصر الذهبى) والشباب (الفضى) ، والرجولة (البرونزى) .

I.S.Ryberg , " Vergil's Golden Age , " TAPhA 89 (1958) p. 114 .

١٥-يعتبر هيسيودوس هو أول من ربط هذه الأسطورة بعصر كرونوس (111) ، ولم يحاول أن يبرر اختياره لكرونوس إذ أن ذلك كان من المسلمات بين أبناء عصره . وعندما قدم أفلاطون رؤيته عن الإعتقاد في وجود ماضى أكثر سعادة فإنه كان يطلق على ذلك العصر اسم " عصر كرونوس " ولم يسمه عصر " الجنس الذهبى " . وعند الرومان تم استبدال ساتورنوس بكرونوس، وأصبح التعبير " ممالك ساتورنوس " (Saturnia regna) هو الوصف المعتاد لعصر الحياة السعيدة سواء في الماضى أو في المستقبل .

H.C.Baldry, op. cit. p. 84f.

١٦- لبيب سعيد .أسطورة ساتورنوس وفكرة العصر الذهبى في الأدب الأوغسطى ، رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة ، ٢٠٠١ صـ٨٤ .

١٧- K.J.Reckford , op. cit. p 82

١٨-انظر أيضاً الأبيات (800-5.790).

وتعتبر كلمات لوكريتيوس هذه موجهة ضد الأساطير التي تتناول أصل الإنسان ، مثل ذكر هيسيودوس لخلق الآلهة للجنس الفضى أيضاً (.Op. 127f) ، وخلق زيوس لكل من الجنس البرونزى (Op.143) ، والأبطال (.Op. 158f) . كما تنتقد كلماته نظرية إمبيدوقليس التي تقول بأن الإنسان قد ولد من صلب ثور (Emp. fr.61) .

١٩- Plato Pol. 271a ; Ov. Met. 1.78-83

٢٠- Hes. Th. 126-87 , 270-336

٢١- ibid. 126-38

٢٢- A. Schiesaro , Simulacrum et imago :Gli argomenti analogici nel

De rerum natura. Pisa (1990) p.143

٢٣-يبدو أن لوكريتيوس كان في ذهنه أيضاً العملاق أوريون(Orion) الذي ذكره هوميروس في الأوديسيا (Hom. Od.11.572-5)، وقد ذكر فرجيليوس أنه كان يعبر المحيط بقدميه ، وكانت رأسه تختفى بين السحب أثناء سيره على الأرض (Virg.Aen.10.763-7) .

٢٤-ذكر بنداروس أيضاً الفاكهة الذهبية (fr.129) والزهور الذهبية (Pind.Ol.2.68-76) وذلك في وصفه لجنة العصر الذهبى وجزر النعيم .على أية حال فإن قوام الفكرة الأساسية لصورة الجنة أنها حياة البساطة والبراءة ، وليست حياة الثروة وأن ما ذكره بنداروس يعد استثناءاً .

M.Gale , op. cit. p. 163

٢٥-ترى M.Gale أن هذا التعامل مع الأساطير بشئ من المرونة يجعلنا نقول أن هذا العرض هو من إبداع لوكريتيوس وأنه قد خرج بذلك من عباءة معلمه إبيقوروس الرافض تماماً للأسطورة .

M. Gale , op.cit. p.164

٢٦-تأثر سااللوستيوس ، المعاصر للوكريتيوس ، بالصورة المثالية للعصر الذهبى عند هيسيودوس ، ففى عمله " حرب كاتيلينا " يصور الفترة المبكرة من التاريخ الرومانى تصويراُ مثالياً ، ثم يذكر أن عام ١٤٦ق .م شهد بداية الإنحدار والتدهور حيث يسود الطموح الجامح والجشع . وقد تمنى الكاتب أن يضع قيصر حداً لهذا التدهور (Sal.Cat.5-13) ، إلا أن مقتل قيصر حطم آماله ، بل إن رؤيته المثالية للرومان الأوائل تلاشت هى الأخرى ، وذكر في عمله التواريخ أن الإنحلال قد بدأ منذ البدايات الأولى لنشأة روما .

K.J.Reckford , op. cit. p.81

وقد مهد سااللوستيوس لقصائد فرجيليوس التي تبشر بعودة العصر الذهبى على يد أوغسطس ، ويعتقد فرجيليوس أن العصر الذهبى في عهد ساتورنوس يرمز إلى النقاء والبساطة للحياة الإيطالية المبكرة (Virg. Geor. 2.538).

J.J.L. Smolenaars , "Labour in the Golden Age a Unifying Theme inVergil's Poems , " Mnemosyme 40 (1987) p. 391.

٢٧- C.R.Beye, op. cit. p. 168

٢٨-يذكر هوميروس أن الأبطال القدماء كانت لهم قامة عملاقة :

Hom . Il.5.303f . , 12.381-3 ; cf. Pliny NH 7.15; Aul. Gell. Noct. Att. 3.10.

٢٩- يفسر لوكريتيوس اعتدال المناخ في تلك الفترة من خلال إظهار التماثل بين العالم الصغير والكون الكبير ، فكل عام يحتوى على أربعة فصول مناخية ، وكذلك فإن الحياة بالكون الكبير تتعاقب أحوالها في مراحل من النمو والإنحدار ، فالأرض في بدايتها كانت في ربيعها الكونى ، حيث كانت تتسم بخصوبة استثنائية وكان المناخ معتدلاً .

٣٠-انظر أيضاً :

Plato Pol. 271d , 272a . Leg . 4.713c ; Virg. Ecl. 4. 26-45 ,

Geor. 1.125-8 ; Tib. 1.3.41-6 ; Ov. Met. 1.101-12

٣١- تأثر فرجيليوس بهيسيودوس في الرعوية الرابعة حيث وصف النماء التلقائى للأرض والأنعام وغياب الحروب والأمراض والعمل ، ويعتقد D.Barker أن الإنشودة المئوية لهوراتيوس يمكن قراءتها على أنها رفض للنماء الذي تنبأ به فرجيليوس وكأنه سيحدث لامحالة ، وأحل محله الدعاء بخصوبة الأرض .

D. Barker , " The Golden Age Is Proclaimed ? The Carmen Saeculare and the Renascence of the Golden Race , " CQ n.s. 46 (1996) p. 445.

ويقول A. Wallace – Hadrill إن قصيدة فرجيليوس تحمل روح التفاءل فهى موجهة إلى راعيه بوليو (Pollio) عام ٤٠ ق.م حيث أبرم أوكتافيوس اتفاق سلام مع أنطونيوس في بروندیسیوم ، وبذلك فإن غيوم الحرب الأهلية قد انقشعت . وعلى عكس فرجيليوس فإن هوراتيوس في نفس الحقبة أبدى تشاؤماً واضحاً واقترح أن الأمل الوحيد للخلاص لدى الشعب الرومانى هو الإبحار إلى جزر المباركين (Hor.Epod.16) .

A. Wallace - Hadrill , " The Golden Age and Sin in Augustan Ideology , " PP 95 (1982) p.20.

٣٢- H. C. Daldry , op. cit . p.91.

حاول فرجيليوس تفسير أصل العمل في الزراعيات (Geor. 1.121-46) فوصف الأيام الأولى للعالم على نحو مشابه لأسطورة العصر الذهبى لهيسيودوس ، إلا أنه بعد ذلك يقص لنا تاريخ الإنسان فيبتعد عن هيسيودوس ويقترب من لوكريتيوس ، فبدلاً من الحديث عن التدهور والإنحدار الذي لحق بالإنسان ، نجده يتحدث عن تطوره تحت إلحاح الحاجة ، وأنه بجهده تعلم كيف يزرع الحقول ويشعل النار ويبحر ويبتكر الفنون ، وهو بذلك يظهر تأثره بالنظرية الإبيقورية. ولكن في حين أن هيسيودوس يرى أن العمل فرض بعد ذلك على البشر من قبل زيوس لغضبه عليهم ، وفى حين أن لوكريتيوس أنكر أى تدخل إلهى في مراحل تطور الحياة الإنسانية ، فإن فرجيليوس يخالف لوكريتيوس ويتحدث عن عناية الآلهة بالبشر وعونها لهم في جميع مراحل تطورهم .

I.S.Ryberg , op. cit. p.ll9 f.

٣٣-يقول J.J.L.Smolenaars إن القصة التي رواها الملك إيفاندروس لأينياس عن الفترة التي سبقت قدوم ساتورنوس إلى سهل لاتيوم كمنفى له تحتوى على عناصر تقليدية للعصر الذهبى (aurea aetas) ، ولكن بطريقة عكسية ، فقد كانت كلماته من حيث المضمون والنغمة تشبه وصف لوكريتيوس للمرحلة البدائية للجنس البشرى :

" لم يعرفوا كيف يضعون النير فوق عنق الثور "

nec iungere tauros ….. norant . (Virg. Aen. 8.316f.)

" بل كانوا يقتاتون بأغصان الأشجار وبصيد صعب لا يكاد يقيم أودهم "
sed rami atque asper victu venatus alebat . (Virg . Aen.8.316f.)
J.J.L. Smolenaars , op. cit. p. 398

M. Gale , op. cit. p. 165f. -٣٤

٣٥-صور فرجيليوس العصر الذهبى في ملحمة الإنيادة على نحو مختلف ، فالقوانين كانت مزدهرة في عصر ساتورنوس الذي صوره كرجل متحضر وكمشرع (.Virg.Aen.8.321f) .
A. Wallace – Hadrill, op.cit. p. 2f.

٣٦-يقول أراتوس إن ربة العدالة (Dike) كانت تعيش بين البشر وكانوا يبجلونها (Arat.Phaen.96-136) .

٣٧- يبدو تأثر لوكريتيوس بالشعر الرعوى في حديثه عن الثمن (pretia) الذي يدفعه الرجال من أجل التبادل الجنسى مع النساء وهو ثمار بعض الفاكهة ، حيث تعد هدايا الحب في الشعر الرعوى عبارة عن ثمار الفاكهة والزهور (.Theoc.Id.3.10f.,11.10;Virg. Ecl.3.64ff)، كما تنطوى هذه الفقرة على نقد الشاعر للفتيات في عصره اللائى يثقلن كواهل خطابهن بالهدايا الغالية ، وهو ما صار موضوعاً (topos) أساسياً من موضوعات الشعر الإليجى (Tib.2.3.35f.,Prop.3.13;Ov.A.A.2.24ff.) .

M.Gale , op.cit. p.171

٣٨-اقتبس لوكريتيوس تشبيه معدة الحيوان بالقبر الحى للبشر من إنيوس (Enn.Ann.138V) .

Hes. Op. 164f. -٣٩

٤٠-انظر أيضاً Plato Leg. 3.679a,d

Lucr. DRN 5.1019 -٤١

D.R.Blickman , " Lucretius, Epicurus and Prehistory", HSCPh 92 (1989) p. 157ff. -٤٢

٤٣-يقول S.J. Harrison إن حديث فرجيليوس عن ثراء إيطاليا بالمعادن مثل الذهب والفضة والبرونز (Virg.Geor. 2.165-76) كان بمثابة عنصر مربك في سياق مديحه لإيطاليا (laudes Italiae, 2.136-76) ، وذلك إذا تم ربط كلماته عن الذهب ثم الفضة والبرونز بالتدهور الأخلاقى كما هو الحال في مجاز العصر الذهبى عند هيسيودوس خاصة وأن فرجيليوس في نهاية الفقرة يربط نفسه بهيسيودوس :

" وإننى أنشد أنشودة أسكرا في (كل) البلدات الرومانية ."
Ascraeumque cano Romana per oppida carmen. (Geor.2.176)

ويعتقد S.J.Harrison أن زراعيات فرجيليوس ترفض بوعى تام الاستخدام المجازى للمعادن للتعبير عن التدهور الأخلاقى كما فعل سلفيه هيسيودوس وأراتوس ، بل إنها تظهر أن المعادن الثلاثة موجودة بوفرة في إيطاليا بشكل يليق بالحديث عن الوفرة بعصر الجنة . وهذه الرؤية العكسية لمثل هذا الموضوع (topos) التعليمى يظهر أصالة الزراعيات كملحمة تعليمية تعبر عن التفاؤل القومى . وهذا الحديث عن ثراء التربة الإيطالية بالمعادن ينقلنا بعد ذلك (70-167) إلى ثراء إيطاليا أيضاً بالرجال ، حيث يمدح الشعوب بالتاريخ الإيطالى ويصل إلى ذروة المديح بمدح أعظم القياصرة أى أوكتافيوس .

S.J . Harrison , Generic Enrichment in Vergil and Horace.Oxford (2007) p.148.

٤٤- J.G.Griffiths , op. cit . p.114.

٤٥-أكد لوكريتيوس على الطبيعة المتدرجة للتطور في أكثر من موضع :

Lucr. DRN 5. 931. , 1011f. ,1105,1279,1293,1307,1370,1384,1434, 1453,1456.

D.R.Blickman , op.cit. p.161.

٤٦-لبيب سعيد . المرجع السابق صـ٧٠

٤٧-أوضح لوكريتيوس أيضاً تبدل الدوافع وراء القتال ، فالإنسان البدائى كان يقاتل من أجل البقاء في الحياة ، بينما كان الرومان في عصره يقاتلون من أجل المزيد من الرفاهية والهيمنة .

٤٨-يأتى ذكر لوكريتيوس للصداقة (amicitia) ، وهى من المفاهيم الإبيقورية الهامة، من باب إظهار أن الإنسان كان في تطور مستمر .

٤٩- C.R.Beye , op.cit. p.168.

٥٠- J.G.Griffiths, op. cit. p.115.

٥١- C.P.Segal , " War, Death and Savagery in Lucretius : The Beasts of Battle in 5.1308-49," Ramus 15 (1986) p.15

٥٢-لعب ساتورنوس في زراعيات فرجيليوس الدور الذي لعبته ربة العدالة (Dike) عند أراتوس ، فساتورنوس يزرع الأرض للبشر الكسالى (Geor.1.125) ، وحياة الفلاحين في عصر فرجيليوس لا تقارن بحياة الإنسان في عصر ساتورنوس أى في العصر الذهبى ، بل تقارن بحياة ساتورنوس نفسه التي تتصف بالحيوية فهو أحد آلهة الزراعة . ويعد رحيل ربة العدالة (Iustitia) من الأرض عند فرجيليوس له وظيفة مختلفة عن رحيلها (أى Dike) عند أراتوس ، فهو يعمق التناقض بين حياة المدينة وحياة الريف .

J.J.L. Smolenaars, op.cit. p. 396.

ربط فرجيليوس في الرعوية الرابعة بين عودة ربة العدالة وبين عودة مملكة ساتورنوس (Saturnia regna) وعودة النماء الذي يتسم به الجنس الذهبى . وعلى العكس من ذلك فإن هوراتيوس في

أنشـــودته المئويـــة ربـــط بـــين عـــودة عـــدد مـــن الأخـــلاق الرومانيـــة (Fides,Pax,Honos.Pudor,Virtus) وبين النماء الذي يرجوه .

D.Barker, op. cit. p.445.

٥٣-لبيب سعيد ، المرجع السابق صـ٧٧-٧٨ ، صـ٨٥-٨٦

٥٤- Lucr.DRN 5.1999-1010,1416-35

٥٥- ibid 6.24-34.

٥٦- M.Gale, op.cit. p.176f.

٥٧-اعتبر شيشرون عمل يوهوميروس أنه الأكثر خطورة على الفكر الدينى الصحيح ، لأنه قلل من قدسية الآلهة ونزل بها إلى درجه البشرية (Cic.ND3.17.24).

٥٨- Aesch . PV 443-506

يصف أيسخولوس بروميثيوس في هذه الأبيات بأنه صاحب الفضل على البشر في معرفة كل الفنون فهو المنعم على البشرية .

٥٩-يروى الملك إيفاندروس لأينياس في ملحمة الإنيادة أنه قبل وصول ساتورنوس عاشت البشرية حياة بربرية ، وأن ساتورنوس قد أنقذهم من الجهل ونقلهم إلى العصر الذهبى ، حيث نقل إليهم عناصر الحضارة وكان النموذج المثالى لديه هو المجتمع الزراعى الذي يحكمه القانون والعرف تحت إشراف ملك طيب . ولأن الشاعر أتبع المرحلة المبكرة البهيمية بمعرفة الفنون والقوانين في مجتمع مستقر ، فقد رأى بعض الدارسين أن فرجيليوس كان يلخص تقرير لوكريتيوس عن الإنسان الأول . على أية حال فإن الإختلافات بين الشاعرين أهم من التشابهات : فعند لوكريتيوس لا يوجد عصر ذهبى ، وكان التطور لديه تدريجياً ، وكانت الفنون تتطور باجتهاد البشر أو بمساعدة عنصر الصدفة ، ولم يوجد عقل واحد مدبر للأمور ولا هداية إلهية في عملية التطور .

ويعتقد M.E.Taylor أن فرجيليوس قد صور ساتورنوس وكأنه بطل حضارى قدم خدمات جليلة، فهو أشبه بـ" الملوك الفلاسفة " الذين ذكرهم بوسيدونيوس (Posidonius) في حديثه عن العصر الذهبى ، الذين حكموا بالحكمة والعدل ، وقاموا بتعليم البشر الفنون ، مما جعل فرصة إقامة المجتمع المدنى ممكنة . ويتفق هذا مع ماورد عند شيشرون الذي يقول إن الجاهل وحده هو الذي يفشل في إدراك أن الفلاسفة في الماضى البعيد هم أول من علم البشر كيف يعيشون الحياة :

a quibus vita hominum instructa primis est . (Cic. Tusc.5.2.5)

ثم يذكر شيشرون أن أبطال الأساطير مثل أطلس و بروميثيوس كانوا من حكماء الماضى ، وهكذا تم تقديسهم لخدماتهم البشرية (Tusc.5.3.7-8) ، وساتورنوس في رواية إيفاندروس هو بالتأكيد أقرب إلى رواية شيشرون من رواية لوكريتيوس .

M.E.Taylor, " Primitivism in Virgil , " AJPh 67 (1955) p. 262ff.

٦٠- Cic. ND 2 .60,62; Virg. Geor. 1.147;Ov. Met. 5.341-3;Pliny NH 7.56.

وينسب ديودوروس الصقلى اكتشاف القمح إلى إيزيس التي يساويها بالربة ديميتر (Diod.Sic.1.13.5) ، وينسب تطور فن الزراعة إلى أوزوريس (Diod.Sic.1.14.1) . وهذا يوهوميروس ، طبقاً لما ورد عند إنيوس ، يعتقد أن الفضل في معرفة القمح والزراعة يعود إلى زيوس (Enn. Euhem. 132-41V) .

٦١- M.Gale, op.cit. p.179.

٦٢-انظر أيضاً Pliny NH 7.56.

٦٣- Ov.Met. 1.689-712.

٦٤-انظر أيضاً Diod.Sic.6.1.10 حيث يقول إن يوهوميروس نفسه فعل ذلك، وتحدث ديودوروس الصقلى أيضاً عن رحلات أوزوريس .

٦٥-استخدم لوكريتيوس كلمة tamen (مع ذلك) لأن الآلهة مع كونها مجرد أطياف فإنها كانت تبدو قوية وخالدة .

٦٦- Plato Leg.3.677a.

٦٧- M.Gale , op.cit. p. 181f.

٦٨- M.Taylor, Progress and Primitivism … op.cit. p. 184f.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً المصادر :

Aeschylus, Prometheus Pound, Edit. and Trans. by H.W. Smyth , L.C.L. , London 1956.
Aratus, The Phaenomena , Edit. and Trans. by G.R.Mair, L.C.L. , London 1955.
Bion, The Greek Bucolic Poets, Edit. and Trans. by J.M.Edmonds, L.C.L., London 1928.
Callimachus , Hymns and Epigrams, Edit. and Trans. by A. W.Mair , L.C.L . , London 1955.
Diodorus of Sicily , The Library of History , Edit. and Trans. by C.H. Oldfather , L.C.L., London 1960.
Ennius , Remains of Old Latin , Edit. and Trans. by E.H. Warmington, L.C.L., London 1935 .
Hesiod , Works and Days, Theogony and Other Works, Edit. and Trans. by H. G. Evelyn – White , L.C.L., London 1943.
Lucretius , On the Nature of Things , Edit. and Trans. by W. H.D.Rouse , L. C.L. , London 1943.
Ovid , Metamorphoses, Edit. and Trans. by F.J.Miller, L.C.L. , London 1946.
Plato , The Statesman , Edit. and Trans. by H.N. Foweler, L.C.L. , London 1952.
Plato, Laws , Edit. and Trans. by R.G.Bury , L.C.L., London 1926
Virgil , Eclogues , Georgics , Aeneid I- VI, Edit. and Trans. by H.R. Fairclough, Revised by P. Goold , L.C.L. , London 1999.

ثانياً المراجع العربية :

لبيب سعيد . أسطورة ساتورنوس وفكرة العصر الذهبى في الأدب الأوغسطى ، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة ، ٢٠٠١.

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

Baldry H.C. , " Who Invented the Golden Age ?" CQ n.s. 2 (1952) 83-9 .

Barker D. , " The Golden Age is Proclaimed ? The Carmen Saeculare and the Renascence of the Golden Race, " CQ n.s 46 (1996) 434 -446 .
Beye C.R. , " Lucretius and Progress , " CJ 58 (1963) 160-169 .
Blickman D.R. , " Lucretius , Epicurus and Prehistory , " HSCPh 92 (1989) 157-191 .
Gale M. , Myth and Poetry in Lucretius . Cambridge 1994 .
Griffiths J.G. , " Archaeology and Hesiod's Five Ages, " JHI 17 (1956) 109-119 .
Harrison S. J. , Generic Enrichment in Vergil and Horace . Oxford 2007.
Reckford K.J. , " Some Appearances of the Golden Age,"CJ 54 (1958) 79- 87 .
Ruberg I.S. , " Vergil's Golden Age , " TAPhA 89 (1958) 112-131 .
Schiesaro A . , Simulacrum et imago : Gli argomenti analogici nel De rerum natura . Pisa 1990 .
Segal C.P. , " War , Death and Savagery in Lucretius : the Beasts of Battle in 5.1308-49," Ramus 15 (1986) 1-34 .
Smolenaars J.J.L. , " Labour in the Golden Age a Unifying Theme in Vergil's Poems , " Mnemosyne 40 (1987) 391-405 .
Taylor M.E., " Primitivism in Virgil , " AJPh 76 (1955) 261-278 .
, " Progress and Primitivism in Lucretius, "AJPh 68 (1947) 180-194 .
Wallace – Hadrill A. , " The Golden Age and Sin in Augustan Ideology , " PP 95 (1982) 19-36.

.